سلسلة شروحات الشيخ

١٣

شرح القواعد الأربع

تصنيف شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية

والمدرس بالمسجد النبوي

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى

شرح القواعد الأربع

شرح

القواعد الأربع

سلسلة شروحات الشيخ

١٣

شرح القواعد الأربع

تصنيف شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية

والمدرس بالمسجد النبوي

الشيخ لم يراجع التفريغ

النسخة الأولى

المُقَدِّمَة

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم، أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة، وأن يجعلك مباركًا أينما كنت، وأن يجعلك ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذ أذنب استغفر، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة.

الشَّرْح

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فهذا المتن الذي نبدأ بعون الله ﷻ في مدارسته هو متن "القواعد الأربع"، وهو من متون التوحيد العظيمة المهمة علىٰ وجازته، فإن هذا المتن يتميز به حقيقة التوحيد من حقيقة الشرك، ويُعرف به أصحاب المنهج المستقيم من غيره، ووفق إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تأليف هذا الكتاب القيم، مع أنه لا يتجاوز الصفحات المعدودة، ولكنه غاية في الأهمية لطالب العلم بل لكل مسلم، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ له عدة رسائل تناول فيها هذا الموضوع، لم يؤلف رسالة واحدة

هي هذه الرسالة، إنما له كما في الدرر السنية وكما في مؤلفاته أيضًا عدة رسائل تضمنت هذه القواعد الأربع، منها ما هو أبسط وأوسع، ومنها ما هو مختصَر، ومن هذه الرسائل المختصرة هذه الرسالة التي بين أيدينا، والتي طبعت وانتشرت واشتهرت، وهي التي إن شاء الله نقرؤها ونتدارسها فيما بيننا بتوفيق الله ﷻ.

بدأ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الرسالة بالدعاء لقارئها أن يتولاه الله ﷻ في الدنيا والأخرة، وتوسّل رَحِمَهُ اللَّهُ في دعائه بكونه الكريم ﷻ، ولا شك أن الكريم اسمه، وأن الكرم وصفه ﷻ، والكريم إذا سُئل أعطىٰ، والله ﷻ يقول كما في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فليظن بي ما شاء»، كما توسّل في دعائه إليه ﷻ بكونه رب العرش العظيم، والله ﷻ رب العرش العظيم، ورب العرش الكريم.

والعرش أعظم المخلوقات، وأعلىٰ المخلوقات، وأثقل المخلوقات، وهو المخصوص باستواء الله ﷻ عليه، وقد جاء في عدة آيات في كتاب الله وَصْفُ الله ﷻ بأنه علىٰ العرش استوىٰ في سبع آيات في كتاب الله، فهذا هو التوسل النافع الذي يُرجىٰ معه حصول الإجابة، وهو أحسن ما يكون من التوسل في الدعاء، أن يتوسل الإنسان إلىٰ الله ﷻ بأسمائه وصفاته.

والسؤال الذي سأله ربَّه ﷻ أن يتولىٰ الله ﷻ القارئ ﷻ ولا شك أن من تولاه الله فقد حيزت له السعادة بجميع جهاتها، من تولاه الله كان له التوفيق، وكان له الفلاح وكان له الرُّشْد وكان له الحفظ من كل مكروه، وكانت له

السعادة في الدنيا والآخرة، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وإذا تولاك الله تولاك عباده الصالحون، ولذا تقول الملائكة عليها السلام للمؤمنين في ثلاثة مواضع : عند الموت، وعند البعث، وعند دخول الجنة ﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [فُصِّلَت: ٣١] فالسعيد المُوفق من تولاه الله ﷻ، وولاه عباده الصالحين.

سأل اللهَ ﷻ أن يتولىٰ الله العبد في الدنيا والآخرة، وأن يجعله ممن إذا أعطي شكر، إذا منَّ الله ﷻ علىٰ العبد فشكر، وإذا ابتلاه فصبر، وإذا أذنب فاستغفر، فإن هذا هو من حاز السعادة بحذافيرها، قال: **(فإن هذه الثلاث عنوان السعادة)** سعادة المرء في أن يكون له هذه الأحوال الثلاث، فإنه يتقلب في هذه الدنيا بين نعمة، وبلية، وذنب، فإذا كان إذا أعطاه الله وأنعم عليه بادر بالشكر.

والشكر: عبادة عظيمة هي خُلاصة التوحيد والعبودية، وهي القائمة علىٰ ثلاثة أركان: تقوم علىٰ اعتراف القلب، وثناء اللسان، والعمل بالنعمة في مرضات الله ﷻ، فمن قام إزاء النعمة بهذه الأمور الثلاث فليبشر بالخير، قد قام بالشكر مع كون الإنسان مقصرًا لا يستطيع أن يشكر الله بما يليق به ﷻ، وإذا ابتلي صبر، إذا نزلت به البلية ونزلت به المحنة فإنه يبادر بالصبر.

والصبر: أعظم نعمة يُعطاها العبد، أخبر النبي ﷺ أنه: «**مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَلَا أَفْضَلَ مِنَ الصَّبْرِ**»، والصبر: حبس القلب، واللسان، والجوارح عما لا ينبغي عند حلول المصائب، إذا حَبَسَ الإنسان قلبه فلم يجزع، ولم يظن بالله غير ما يليق به، وحبس لسانه عن التشكي، وحبس جوارحه عن الأفعال التي

لا تنبغي كشق الجيب، وحلق الشعر، ولطم الخد وما شاكل ذلك، فليبشر بنعمة عظيمة من الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

من كان قائم بعبودية الصبر عند المصائب فهذا هو الذي محنته منحة، وهذا هو الذي بليته عطية، ومن سواه فله السُخط من الله ﷻ، الله ﷻ ابتلىٰ عباده المؤمنين امتحانًا لهم، فالذي يرضىٰ فله الرضا من الله ﷻ، والذي يسخط فله السُخط من الله ﷻ.

الحال الثالثة: أنه إذا أذنب استغفر قال ﷻ في حق عباده المؤمنين المتقين ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وأعظم الاستغفار ما تواطأ عليه القلب واللسان، الاستغفار الناجع الذي صاحبه مفلح هو الذي يجتمع فيه القلب مع اللسان، أما القلب فإنه يندم ويعزم علىٰ عدم العود، وأما اللسان فإنه يدعو الله ويسأله المغفرة، فيقول استغفر الله، هذا أكمل الاستغفار وأنفع الاستغفار، وكل ما جاء من أدلة في فضل التوبة وأثرها يدل علىٰ هذا النوع من الاستغفار دون شك.

إذن الذي يُوفق إلىٰ هذه الثلاث، أنه إذا أُعطي النعمة من الله شكر، وإذا ابتلي بالمصيبة صبر، وإذا أذنب استغفر، فهذا قد نال عنوان السعادة في الدنيا والآخرة، هذه هي السمة والعلامة علىٰ أن الله أراد به الخير، وأنه السعيد الموفق في الدنيا والأخرة، والناس في الدنيا والآخرة بين سعيد وشقي ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ

وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٥]، فالناس في هذه الدنيا ينقسمون إلىٰ هذين الصنفين، وينقسمون إلىٰ هذين القسمين، منهم السعيد بطاعة الله ﷻ وتوحيده، ومنهم الشقي بالكفر به وبمعصيته، وفي الآخرة يتجلىٰ هذا أكثر ويظهر هذا بوضوح، ينقسم الناس وينحاز الناس إلىٰ هذين الفريقين ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فالأشقياء لهم الغضب من الله عز وجل ولهم السُخط ولهم العذاب، والسعداء لهم الجنة والرحمة من الله ﷻ.

إذن هذه الأمور الثلاث حريةٌ أن يقف عندها المسلم، وأن يزن نفسه اتجاهها، هل هو ممن يتصف بها! إذن فليبشر بالخير، قد نال سبب السعادة في الدنيا والآخرة.

هذه المقدمة الطيبة التي ابتدأ بها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كأنه اقتبسها من كتاب ابن القيم "الوابل الصيب" فإنه قد قدم كتابه بكلمات نحوِ هذه التي بين أيدينا، وهذا لا شك أنه من حسن التأليف ومن براعة الاستهلال أن يبدأ المؤلف بمثل هذا الدعاء الذي تنشرح له النفس.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصا له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها.

الشَّرح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(اعلم أرشدك الله لطاعته)** نبه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الكلمة، وهي (اعلم) علىٰ أن ما يأتي موضوع مهم حريٌ أن تفتح له سمعك وقلبك، **(اعلم)** فإن هذا مما ينبغي أن يُعلم، وهذا الأمر الذي سيبينه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا بد فيه من العلم لا ينفع فيه الظن، بل لا ينفع فيه إلا إن أن يكون الإنسان عالمًا به معتقدًا له جازمًا في قلبه به، وهذا هو الذي ينتفع بما سيذكره رحمه الله.

(اعلم أرشدك الله لطاعته) وهذا دعاء ثانٍ من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا من حسن تأليف المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه ممن تميز بالإكثار من الدعاء لطالب العلم والقارئ لمؤلفاته، وهذا دليل علىٰ الرحمة، وهذه سمة العالم، العالم الصادق هو الذي يكون في قلبه الرحمة بالمدعوين، والرحمة بالمسلمين وهذا الذي نرجو أن يكون قد حمله المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للمسلمين.

(اعلم أرشدك الله لطاعته) المسلم أحوج ما يكون إلىٰ أن يرشده الله ﷻ إلىٰ الحق، وأن يرشده إلىٰ الصواب، وأن يرشده إلىٰ الخير.

إِذَا لَـم يَكُـنْ عَـونٌ مِـنَ اللهِ لِلفَتىٰ ... فَـأَوَّلُ مَـا يَجنِـي عَلَيـهِ اجتِهَـادُهُ

الإنسان بطبعه ظلومٌ جهول، لا يوفق مالم يوفقه الله، ولن يهتدي حتىٰ يهديه الله «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ».

إذن في كل حركة وسكنة أنت بحاجة إلىٰ إرشاد وهداية من الله ﷻ، وأعظم وأهم ما يُطلب له الإرشاد إلىٰ الطريق الحق، وإلىٰ الصواب، هو الإرشاد إلىٰ الطاعة التي يحبها الله ﷻ، أن يُوفق إلىٰ مراضي الله، وإلىٰ محابه ﷻ، فكم من الناس من يعمل ويجدُّ ويبذل ولكنه لا يُوفق إلىٰ الطريق الصواب "كم من مريد للخير لا يبلغه".

لكن الذي يُفلح، والفلاح كلمة تجمع الخير كله، المفلح هو الذي يوفقه الله ﷻ إلىٰ أن يكون اجتهاده في مراضي الله ﷻ، هذا الذي وفق وهذا الذي نال السعادة، أن يُرشد ويهدىٰ إلىٰ طاعة الله ﷻ وبالتالي فيكون عمله مثمرًا ويكون له نافعًا عند الله ﷻ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله مخلصا له الدين.

الشَّرْح

الحنيفية ملة إبراهيم، ملة: يعني دين، دين إبراهيم : الحنيفية.

ومَنْ إبراهيم: إنه خليل الرحمن الذي اتخذه الله خليلًا، إنه إمام الحنفاء، إنه أبو الأنبياء الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، إنه الذي وصفه الله ﷻ بأنه من عباده المؤمنين، إنه الذي أخبر الله أنه في الآخرة من الصالحين، إنه الذي جعله الله للناس إمامًا، إنه الذي جاء ربه بقلب سليم، إنه الذي قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين، إنه الذي عَالَن قومه بالإنكار وإبداء المعاداة في الله ﷻ، فقال الله ﷻ عنه أنه تبرأ من أبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزُّخرُف: ٢٨]، إنه الذي أمر الله ﷻ بأن يكون أسوة حسنة لنا ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، إنه الذي قام بالدعوة إلىٰ توحيد الله ﷻ وصدع بالحق ولم يخف في الله لومة لائم؛ ولأجل هذا رماه قومه في النار فلما رماه قومه في النار قال حسبي الله ونعم الوكيل، فأصبحت النار بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيم، ثم قال إني مهاجر إلىٰ ربي، إني ذاهب إلىٰ ربي، فأرشده الله ﷻ إلىٰ أن يحل بأهله وولده بواد غير ذي زرع، ليُقيم هاهنا مَعْلَمًا للتوحيد، ويكون مأوىً للتوحيد، وجعل ابنه هناك ليكون

داعية للتوحيد، تركه في هذا الوادي الذي لا ماء فيه ولا زرع ولا طعام؛ لأن الله ﷻ أمره بذلك، ولذا لَمَّا تركهم في هذه الصحراء القاحلة وذهب صارت تتبعه أم إسماعيل كيف تتركنا في هذا المكان، وهو لا يجيبها وتكرر عليه السؤال، وهو لا يرد عليها حتىٰ إذا قالت آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا الله.

ثم لما بلغ إسماعيلُ معه السعي أمره الله ﷻ أن يذبحه بيده، أي بلاء هذا البلاء، وأي امتحان هذا الامتحان؟ أن يُبتلىٰ بأن يذبح ابنه بيده؛ لأن الله ﷻ أمره بذلك، فما كان منه إلا أن استجاب ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ [الصافات: ١٠٥]، فيا لله العجب، من حال هذا النبي الأكرم وهذا الإمام الأعظم، الذي كان قلبه للرحمن، وولده للقربان، وبدنه للنيران، وماله للضيفان ﷺ، هذا النبي الكريم هو الذي لما قيل للنبي ﷺ "يا خير البرية" قال: «ذاك إبراهيم»، إبراهيم عليه السلام هو الذي كان يُحب هذه الأمة ولذا أقرأها السلام فعند الترمذي وغيره، أن النبي ﷺ قال: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلاَمَ» فنقول : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، «وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ».

إبراهيم عليه السلام هو الذي أخبر النبي ﷺ أنه أول من يُكسىٰ يوم القيامة كما في صحيح البخاري، إبراهيم عليه السلام هو الذي ما أمر النبي ﷺ باتباع ملة نبي من الأنبياء إلا هو ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ [النحل: ١٢٣] وهو الذي

أمرت الأمة باتباع ملته عليه السلام: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥]، هو الذي قال الله ﷻ في حقه ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، هو الذي قال الله ﷻ في حقه ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ملة إبراهيم هي حقيقة الهداية ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]، الهداية ليست في اليهودية والنصرانية، إنها في ملة إبراهيم حنيفًا، إذن هذا هو إبراهيم وهذه هي ملته **"التوحيد"**، انجذاب القلب والجوارح إلىٰ الله سبحانه وتعالى حتىٰ يكون القلب لله وحده محبًا، ومنه خائفًا، وله راجيًا، أن يكون الدعاء والنذر والذبح، وكل أنواع العبادة لله سبحانه وتعالى، أن يخلص العبد الدين لله ﷻ، أن يكون ولاؤه لله، ولعباد الله، ولدين الله، وأن يكون براؤه من كل ما يعارض أمر الله ﷻ ومن كل من يحاد الله ورسوله ﷺ، هذه هي ملة إبراهيم التي لا يجوز لأحد قط أن يرغب عنها، بل لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه، وأضاع حظ نفسه، هذه الملة قال المؤلف رحمه الله في توضيحها **(أن تعبد الله مخلصًا له الدين)**

وهذا الأمر هو الذي أمر الله به الأولين والأخرين الجن والإنس من أولهم إلىٰ آخرهم، بل هذا الذي لأجلهم خلقهم الله سبحانه وتعالى، واللهِ إن الله ما خلقنا لا نأكل ولا لنشرب ولا لنتوظف ولا لنكسب المال، ولا لنتزوج ولا لنبني ولا لشيء من هذا، الله ﷻ خلقنا لهذه الحقيقة العظيمة، عبادة الله وحده لا شريك له هذا الذي خلقك الله ﷻ لأجله ولهذا أورد المؤلف رحمه الله الدليل علىٰ هذه الحقيقة

العظيمة فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] لاحظ النفي ثم الاستثناء، وهو دال عند أهل اللغة علىٰ الحصر والقصر، فهذا هو الحق الذي لأجله خلق الله الخلْق، عبادته وحده لا شريك له، فمن قام بهذا فإنه السعيد الموفق الذي قام بما أوجب الله تعالىٰ عليه، هذا هو الذي حياته نافعه، بل هذا هو الحي حقيقة ومن سواه فإنه ليس بحي؛ لأن الحياة الحقيقية حياة القلب والروح، أما حياة البدن فإنها ليست هي الحياة المقصودة، إذ يشترك فيها مع الإنسان جميع الحيوانات، والحشرات، والبهائم، لكن الحياة الحقيقة هي حياة القلب والروح وذلك لا يكون إلا بتوحيد الله واتباع رسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فهنيئًا لمن أحيا الله عز وجل قلبه بتوحيده واتباع أنبيائه ورسله عليهم السلام.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته، فاعلم أن العبادة لا تسمىٰ عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمىٰ صلاة إلا مع الطهارة؛ فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كالحدث إذا دخل في الطهارة.

الشَّرْح

بين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه الحقيقة ينبغي أن تكون معلومة، وأن تكون ماثلة في ذهنك، وهي أن الله عز وجل خلقك لعبادته، هذه حقيقة لا تقبل الشك، ولا تقبل الريب، ولا تقبل الجدل، لكن إذا فهمتها فافهم مسألة مهمة، وهي أن العبادة لا تكون عبادة -لا تسمىٰ عبادة- إلا مع التوحيد، إذن لا بد من مصاحبة التوحيد، لا بد من مقارنة التوحيد للعبادة وإلا فإن هذه العبادة في الحقيقة ليست عبادة، وبالتالي فمن عبد عبادة أشرك فيها مع الله ﷻ لم تكن هذه عبادة، كما أنه إذا عبد الله عبادة أخلص فيها القصد لله، لكنه أشرك في غيرها أيضًا لا تسمىٰ هذه عبادة، أرأيت لو أن إنسانًا صلىٰ لله، ولكنه أشرك في دعائه أصلاته عبادة؟ الجواب: لا.

لأن القاعدة التي ينبغي أن نحفظها هي أن العبادة لا تسمىٰ عبادة إلا مع التوحيد، والتوحيد يجب أن يكون في جميع العبادة، أن تقصُد الله ﷻ وحده بالعبادة، أما إذا وحدت في واحدة، وأشركت في أخرىٰ ما انتفعت بشيء

لم ينفعك شيء من هذه العبادات التي تقوم بها، إنما هو تعب فقط، تتعب وتنصب والنتيجة لا شيء، بل يا ليت أنه لا شيء، إنما العذاب الأليم عند الله ﷻ لمن أشرك به.

إذن هذا هو التوحيد يا أيها الإخوة نبه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أن هذا التوحيد هو الأساس الذي لا تقبل الأعمال إلا علىٰ قاعدته، من لم يكن له هذا الأساس فإنه كالذي يبني في الهواء، أو كالذي يبني علىٰ الماء، ليس لبنائه حقيقة ولا قيام ولا يُنتفع بذلك عند الله وإن وجدت الحركات، وإن وجدت الأفعال، لكن العبرة إنما هي بالقَبول من الله ﷻ، واللهُ لا يقبل إلا ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه النبي ﷺ جعل لنا قاعدة واضحة كالشمس لما يُقبل ولما لا يُقبل، لما ينفع ولما لا ينفع قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ» ما سواه لا قَبول له، انتبه يا عبد الله قضية محسومة، قضية منتهية، إما أن تكون العبادة كلها لله ﷻ، وإلا فإن العبد لا ينتفع بشيء مما يعمل، ثم بعد ذلك هو حجيج نفسه، اتضح له الحق، فالشرك متىٰ ما دخل في عبادة أفسدها، مِثْلُهُ مِثْلُ نواقض الطهارة

سواء بسواء، أرأيت إنسانًا توضأ أحسن وضوء وأكمل وضوء، جمع فيه أركانه، جمع فيه شروطه، واجباته، سننه، ثم إنه قُبَيْلَ أن يُكبر أحدث، ثم صلىٰ تلك الصلاة التي لا أطول منها، ولا أخشع منها، ولا أحسن منها، صلاة من أحسن ما يكون ما رأيكم بهذه الصلاة؟ أهي مقبولة؟ لا واللهِ ليست مقبولة فإن الله ﷻ لا يقبل صلاة أحد منا إذا أحدث حتىٰ يتوضأ، هذه قاعدة بينها لنا

النبي ﷺ، إذن الشأن أن للتوحيد ناقض كما أن للطهارة ناقضًا، هذه مُسلّمة، هذا مثال صحيح مائة بالمائة، التوحيد مثل الطهارة بل هو أعظم طهارة، والشرك مثل النجاسة بل هو أعظم النجاسات وأخبث النجاسات، متىٰ ما دخلت النجاسة علىٰ الطهارة أفسدتها، وكذلك متىٰ ما دخل الشرك علىٰ التوحيد أفسده، لا ينتفع الإنسان بعبادته ولا ينتفع بتوحيده، وبقيامه بطاعة الله ﷻ إلا إذا جدد توحيده، إلا إذا تاب إلىٰ الله ﷻ من شركه، وأقبل وأناب وكان لله حنيفًا مخلصًا لله ﷻ الدين.

الحنيف: قيل هو المائل عن الباطل إلىٰ الحق، وعن الشرك إلىٰ التوحيد، ولأجل هذا قيل لمن في قدمه انحراف أحنف، في قدمه ميل تميل أصابعه هذه إلىٰ هذه، هذا يسمىٰ أحنف، فهذا هو الحنيف في اللغة الذي يميل.

وفي الشرع: هو المائل عن الضلالة إلىٰ الاستقامة، يقول الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ في المفردات : الحنف: هو الميل عن الضلالة إلىٰ الاستقامة يقابل الجَنَفَ، الجنف بالعكس: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ [البقرة: ١٨٢] الجنف: هو الميل عن الاستقامة إلىٰ الضلالة، إذن هذا هو الحنف، وهذا هو الحنيف الذي يميل عن الضلالة إلىٰ الاستقامة.

ولماذا سميت ملة التوحيد حنيفية؟ ولماذا سمي إبراهيم حنيفًا ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]؟

قال أهل العلم؛ لأنه لما خرج علىٰ قومه بهذه الدعوة دعوة التوحيد، وكان الناس في ذلك الوقت يتخبطون في ظلمات عظيمة من الضلالة، كان مائلاً عنهم إلىٰ الحق، وكان دينه مائلاً عنهم إلىٰ الحق، فهذا هو الحنيف.

وقيل : إن الحنف: هو الاستقامة، وإنما سمي من في قدمه عوج بأنه أحنف من باب التفاؤل كما يقال

للديغ سليم، وللصحراء مفازة.

وقيل إن الحنف: هو الإقبال علىٰ الشيء، وهذا يستلزم الميل عن غيره، فمن أقبل علىٰ الله ﷻ فإنه حنيف وهذا يستلزم أن يكون مائلًا ومنصرفًا عن غيره ﷻ.

الشاهد أن هذه حقيقة التوحيد أن تكون مقبلا علىٰ الله، ومنحرفًا ومنصرفًا ومبتعدًا عن كل ما سواه ﷻ، وبهذا تنتفع بعبادتك وطاعتك يا عبد الله، وأما ما سوىٰ ذلك فإنك لا تنتفع بشيء، بل إذا وقع الشرك كانت الخسارة التي ليس بعدها خسارة.

الشرك: عبادة غير الله مع الله، وهذا الشرك هو أعظم جريمة علىٰ وجه الأرض، أكبر جريمة علىٰ وجه الأرض وقعت وتقع هي الشرك بالله ﷻ، أعظم ذنب وعقوبته أعظم العقوبات، سبحان الله العظيم، يجمع هذين الأمرين أنه أعظم الذنوب، وأن عقوبته أعظم العقوبات.

أما كونه أعظم الذنوب **فأولًا:** لأن فيه تنقيصًا لرب العالمين، هذا الذي يُشرِك مع الله غيره، يتوجه في العبادة لغير الله حقيقة فعله أنه انتقص من القدْر

العظيم لله ﷻ، الله ﷻ له حق على عباده، وحق الله على عباده كما أخبر النبي ﷺ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وبالتالي فهذا الذي أخذ حق الله وأعطاه لغيره هذا استخف بحقه واستخف بقدْره، أرأيت لو أن إنسانًا ملكًا عظيمًا له سلطة، وله سطوة، وله جبروت، والناس تخافه، والناس تحسب حسابه، وله أمور يملكها وحدود حدها هل يجرؤ أحد على أن يأخذ ماله ويتعدى على حقه؟ لا يفعل ذلك إلا شخص استخف به، ولم يَقْدُرْهُ قَدْرَهُ، والله ﷻ هو الذي بيده ملكوت كل شيء، الله هو العظيم، والله هو الكبير، والله وهو مالك الملك ﷻ، وبالتالي هذا الذي يأتي ويعمد إلى حقه فيصرفه إلى غيره، هذا مستخف بحق الله ﷻ، فحُق للشرك أن يكون أعظم الذنوب.

ثم هو **ثانيًا**: معاندة لله؛ لأن الله ما خلقك إلا لكي تعبده ولا تشرك به شيئًا، فجاء المشرك وأتى بضد ذلك سواء بسواء، سبحان الله العظيم، الله يخلقك لغاية فتأتي يا هذا إلى ضد هذه الغاية، هذه معاندة، حينما تكلف شخص أن يصنع لك شيئًا، تأتي به لكي يصلح لك جدارًا، فإذا به لا يصلح الجدار بل يهدم الجدار، حقيقة الأمر أنه يعاندك لم يفعل الأمر الذي أمر به بل فعل ضده تمامًا، وهذا من المعاندة التي تستوجب غضب الله ﷻ وسخطه.

ثم أمر **ثالث**: الشرك ظلم؛ لأنه تشبيه للعاجز بكل حال على القوي من كل وجه ﷻ، يا عبد الله

أين عقلك حينما تأتي إلى فقير وإلى ضعيف وإلى عاجز وإلى مخلوق فتجعله بمنزلة الخالق، تجعله مثل الله ﷻ تبذل له من الطاعة والإقبال والقصد

والمحبة مثلَ ما تبذل لربك العظيم ﷻ، والله ﷻ بين قول المشركين إذا عاينوا الحقيقة في الآخرة يقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٩] أين ذهبت العقول، أين طاشت الألباب حينما يُسوىٰ الفقير من كل وجه بالغني من كل وجه، والعاجز من كل وجه بالقوي من كل وجه، والعبد بالْمَلِك ﷻ، والله إن هذا لظلم وأي ظلم وصدق الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

إذن استحق الشرك أن يكون أعظم ذنب علىٰ الإطلاق.

ثم هو ثانيًا عقوبته أعظم العقوبات، تدري ما عقوبة الشرك؟ لا ذنب له عقوبة كالشرك، مهما عمل الإنسان من الذنوب والمعاصي، مهما فحشت، ومهما كبرت، ومهما كثرت فإنها لا تساوي شيئا أمام هذا الذنب العظيم.

أولًا: هو موجب للخلود في النار -نسأل الله السلامة والعافية- خلود أبدي إلىٰ مالا نهاية في عذاب وجحيم وأنكال وكل ذلك بسبب أنه أشرك مع الله ﷻ مع أنه كان يستطيع أن يتفادىٰ ذلك وأن يسلم من ذلك بأمر يسير، بل والعبد مفطور عليه، ولذا الله ﷻ يوم القيامة يخاطب من أشرك ويتلظىٰ في نار جهنم -والعياذ بالله- ويقول له: «لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ مِنَ هَذَا الْعَذَابِ؟، فَيَقُولُ: بَلَىٰ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: قَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُو أَهْوَنُ وَأَنْتَ فِيْ صُلْبِ أَبِيكَ آدَم، أَنْ تَعبُدَنِي وَلاَ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلا الشِّرْك» أمر سهل يسير، اعْبُد الله ولا تعبد غيره، دعاؤك لله لا تلجأ لغيره، لا لميت ولا لولي ولا لنبي

ولا لقريب ولا لبعيد ولا لصنم ولا لشجر ولا لشيء إطلاقًا، تدعو الله وحده لا شريك له، تصلي لله، تذبح لله، تنذر لله، تخاف من الله، تحب الله، ترجو الله، أن يكون الله ﷻ في قلبك أعظم من كل شيء، وأن تعتقد أن كل من سواه فهو عبد لله، وأن الله هو الذي بيده كل شيء، وأنه هو الذي ينفع، وأنه هو الذي بيده الضر ﷻ، فالأمور كلها مقاليدها

بيده ﷻ، هذا هو التوحيد وهو أمر سهل يسير لكن من حقت عليه الضلالة أبىٰ ذلك -عياذًا بالله- فأشرك مع الله فكان له الخسارة الدائمة؛ لأنه ليس كغيره من المذنبين، أي ذنب آخر عوقب عليه صاحبه في النار، كل المعاصي يعاقب عليها صاحبها في النار؛ لأن فيه خُبْثًا يُراد أن يتطهر منه، هذه النار كالكير الذي يُطهّره ويُنقّيه حتىٰ إذا دخل الجنة كان طيبًا، طيّبًا طِيبًا لا خُبْثَ فيه لا يدخل الجنة إلا طيبًا قال ﷻ: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٣] النتيجة أن تدخلوا الجنة، قبل الطيب ما في دخول للجنة.

أما المشرك فهذا خبثه لا ينتهي، ولذلك كان عذابه لا ينتهي، المشرك مثله مثل الكلب نجاسته عينية، أرأيت لو أنك صببت علىٰ كلبٍ بحار الأرض، يتطهر؟ يخرج عن وصف النجاسة؟ لا يخرج عن وصف النجاسة أبدًا، لم؟ نجاسته عينية، المشرك مثله في الخبث بل أخبث، ولذا كان عذابه إلىٰ مالا نهاية نسأل الله السلامة والعافية.

الأمر خطير، أرأيتم لو أن إنسانًا عاش سبعين أو ثمانين أو تسعين سنة في هذه الحياة قضاها كلها في طاعة من صلاة إلىٰ صوم إلىٰ حج إلىٰ عمرة إلىٰ ذكر إلىٰ تلاوة قرآن، يبذل كل ما عنده في سبيل الله، ولكن في آخر دقيقة من حياته أشرك مع الله، قال يا رسول الله المدد المدد، فقط كم أخذت هذه من وقت، كم دقيقة أخذت؟ ثلاث ثوانٍ فقط، يا رسول الله المدد المدد، ياسيدي فلان أغثني، ثم مات نسأل الله السلامة والعافية، هذا وقع في الشرك.

والله كلامه حق وصدق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] واللهُ لا يبدل القول لديه: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٨-٢٩] ما مصير هذا الإنسان؟ الجواب: أنه في النار خالد مخلدٌ فيها، عليه لعنة الله، والملائكة، والناس جمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا، وهذه العقوبة الثانية كل أعماله الصالحة، تسعون سنة مشحونة بطاعة الله يجعلها الله هباءً منثورًا: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] والسياق في الآية في حق الأنبياء عليهم السلام، فكيف بغيرهم، وحاشاهم من الشرك عليهم السلام، عصمهم الله من ذلك، ولكن هذا فيه تحذير وتنبيه لنا ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩].

إذن هذه العقوبة الثانية أنه يحبط -أعني الشرك- كلَّ أعمالك الصالحة لا قيمة لها مثلها مثل الحدث إذا ورد علىٰ الطهارة، إذا جلست متطهراً من الآن إلىٰ صلاة الظهر، أربع خمس ست ساعات وأنت علىٰ طهارة، لكن قبل أن تكبر

للظهر أحدثت، ما قيمة خمس ساعات من الطهارة، الآن تصبح لا شيء، ليس لها أثر، ليس لها فائدة، يجب عليك أن تعيد الطهارة، كذلك التوحيد، كذلك الطاعة، كذلك العبادة، لابد أن تحافظ عليها إلىٰ أن تموت حتىٰ تنتفع بها، وإلا لو دخلها الشرك ما انتفعت بها حَبِطَتْ وَذَهَبَتْ -والعياذ بالله-.

الأمر **الثالث**: أن الشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله أبدًا، يجب عليك أن تَيْئَسَ من أن يغفر الله ﷻ شركًا به ﷻ،لا يُعفىٰ عنه، إلا أن يتوب صاحبه فقط، إن تاب صاحبه تاب الله عليه، أما ما سوىٰ ذلك فإن الله لا يغفره، إذ قال ﷻ في كتابه المبين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، انتهت القضية، ما دونه من المعاصي والذنوب فإنه يقبل المغفرة إن شاء الله غفره، ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، أما الشرك فإنه لا يقبل المغفرة أصلًا، وبالتالي الشرك موجب للخلود في النار، محبط للأعمال، لا يغفره الله لصاحبه ألبتة، إلا أن يتوب.

إذن ذنب هذا شأنه، وهذا حجمه في الخطورة والضرر، حريٌّ أن يحذره الإنسان، وحريٌّ أن يعرفه، وأن يتعلمه كما يتعلم الخير، عجيب! شرك ويتعلمه الإنسان ويعرفه الإنسان؟ الجواب: نعم، وأكثر من يقع فيه من لا يبالي به؛ لأنه لا يعرفه.

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

ما أقرب أن تقع في حفرة إذا كنت تسلك طريقًا لا تعرفه ولا تعرف معاطبه، تمشي في طريق لا سيما في ظلمة، أو فيه رياح وغبار، والطريق فيه معاطب،

فيه حفر، وفيه مشكلات إذا لم تكن تعرفها علىٰ وجه الدقة، فإنك قريب من أن تقع في شيء فيها، فهذا مما يحثنا علىٰ أن نتنبه ونحذر، اليوم لو وقع في الناس - وأسأل الله أن يعافيني وإياكم وجميع المسلمين- بلاء، وباء، فايروس، جرثومة تهلك الحرث والنسل، وانتشرت وسببت موت أمة من الناس، ماذا تجد الناس يفعلون يذهبون يتتبعون القنوات والصحف والمواقع يبحثون عن أسباب الوقوع في هذا الفايروس الوقوع في هذه الجرثومة حتىٰ يسلموا منها، هذا فعل العاقل أليس كذلك!

واللهِ إن الشرك لأعظم فايروس وأعظم جرثومة وأعظم وباء قاتل، بل يا ليت أنه يقتل الأبدان لكان الأمر هينًا، لكنه يقتل ويفسد كل خير وفلاح وسعادة - نسأل الله العافية والسلامة-.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار، عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة، وهي الشرك بالله، الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالىٰ في كتابه.

الشَّرْح

يقول : أهم ما عليك يا عبد الله، يا من يريد نجاة نفسه، يا من يريد السلامة، عليك أن تعرف التوحيد وتلتزمه، وعليك أن تعرف الشرك وتجتنبه، وبهذا تبذل السبب الذي يُسلمك من الوقوع في هذه الشبكة.

هذا مثال جميل من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هذه ورطة مثلها مثل شبكة الصياد، إذا وقع فيها الصيد لا يكاد أن يسلم، الغالبُ هلاكه، كذلك الشرك بالله ﷻ ورطة عظيمة وشبكة من وقع فيها فهو إلىٰ الهلاك، وهذه الشبكة أسبابها ومنافذها ونوافذها وأبوابها كثيرة، لا سيما في هذا العصر مع الأسف الشديد، اليوم نحن في عصر فتن، وفي عصر شبهات تقذف علىٰ الناس من كل جهة، تنزل عليهم من الفضاء وتدخل عليهم في داخل بيوتهم من الشبكات، وتقذف بها وسائل الإعلام، ووسائل التواصل، وفي ضمن ذلك ما فيه من الشرك بالله عز وجل،

وأسبابه، وتزيينه، هناك من يزين الشرك، هناك من يحسن الشرك، هناك من يقدمه علىٰ أنه خير، وحقيقته السم الزعاف، والضرر الذي لا نفع فيها، فعلىٰ الإنسان أن يتعلم ذلك، ولله الحمد أن الله ﷻ ما حذر عباده من شيء إلا وقد بينه لهم، كتاب الله واضح، وسنة رسوله ﷺ واضحة، التوحيد واضح والشرك واضح، ما عليك إلا أن تقرأ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بتدبر وتفهم، وبتجرد لطلب الحق وأبشر فإن الله عز وجل سيهديك للحق ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

القاعدة الأولىٰ: أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقِرُّون بأن الله هو الخالق الرازق، المحيي المميت المدبر لجميع الأمور، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

الشَّرْح

هذه القاعدة الأولىٰ من القواعد الأربع التي يتميز بها التوحيد من الشرك، والموحد من المشرك، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا مُقِرّين بأن الله تعالىٰ هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر)** هذا القدْر الذي كانوا يؤمنون به لم يكن كافيًا في دخول هؤلاء المشركين الإسلام، ولا في عصمة أنفسهم وأموالهم، كون العبد مؤمنًا بأن الله سبحانه هو الخالق وحده، الرازق وحده، المدبر وحده، هذا القدْر لا يكفي وحده مالم ينضم إليه توحيد الله ﷻ بالعبادة، والقرآن مليء بالأدلة التي تدل علىٰ هذه الحقيقة المهمة التي بها يتميز التوحيد المُنجي عند الله ﷻ من غيره، وأنت إذا تأملت يا رعاك الله في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ تبينَتْ لك هذه الحقيقة تمام البيان.

ويمكن أن نُقسّم هذه الأدلة إلىٰ مجموعات يندرج تحت كل واحد منها عدد من الأدلة:

أولًا: الأدلة التي فيها تصريح هؤلاء المشركين بأنهم يؤمنون بأن الله وحده الخالق الرازق المحيي المدبر، ومن ذلك هذه الآية التي بين أيدينا: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ إذن كان هذا هو اعتقادهم، أن الله هو الخالق، أن الله هو الرازق، أن الله هو المالك، أن الله هو المدبر، ومع ذلك فلم يزالوا مشركين، ولم يزالوا كفارًا، ومع ذلك هم خالدون في النار أبدًا، وقل مثل هذا في أدلة كثيرة قال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزُّخرُف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٧]، ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٩٠].

إذن كان القوم مقرين بهذه الحقيقة تمام الإقرار، نحن نتحدث عن أبي جهل وعن أبي لهب وعن أمية بن خلف، وعن أضرابهما من المشركين، الذين حكم الله عليهم وحكم عليهم رسوله ﷺ بالكفر، قاتلهم النبي ﷺ وجعل حدًا لانتهاء هذا القتال وهم لم يَصِلُوا إليه، قال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

إذن إيمان العبد بأن الله هو الخالق الرازق دون أن ينضم إليه اعتقاده بإفراد الله بالعبادة، وأن يفرده حقيقة بالعبادة، هذا القدر يعني أنه ما أتىٰ بلا إله إلا الله، وما خرج عن الكفر.

النوع الثاني من الأدلة: الأدلة التي فيها بيان أن هؤلاء المشركين كانوا إذا نزل بهم الضر لجؤوا إلىٰ الله ﷻ وحده، ما كانوا يلجؤون إلىٰ آلهتهم ومعبوداتهم مع عظيم محبتهم لها، يقول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] سبحان الله العظيم إذا جاءت الحقائق ونزلت المصائب لا تجد قلوب هؤلاء وألسنتهم تلتفت إلا إلىٰ رب العالمين ﷻ وحده، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لم؟ لأنهم يعتقدون أن الله ﷻ هو الذي بيده أن ينقذهم، ولو كانوا يعتقدون في آلهتهم ذلك، لو كانوا يعتقدون في اللات والعزىٰ وهبل ومناة، أنها تملك إنقاذهم من هذه الورطة التي هم فيها لما ترددوا في دعائها، لكنهم يعلمون أنها لا تملك من الأمر شيئًا، وأن الذي بيده كل شيء هو الله ﷻ وحده، إذن كان القوم يؤمنون بربوبية الله ﷻ في الجملة، ومع ذلك ما أخرجهم هذا من الكفر، وما أدخلهم هذا في الإسلام.

النوع الثالث من الأدلة: أن المشركين قد بينوا بلسان فصيح وكلام واضح عقيدتهم في معبوداتهم وآلهتهم، وأنها لاتعدوا أن تكون شفيعة عند الله، ولا تعدوا أن تكون مقربة له زلفىٰ عنده، ولو كانوا يعتقدون ما هو أكبر من ذلك

لقالوا وصرحوا، ولنقل القرآن لنا ذلك، لو كانوا يعتقدون أن هذه الألة والمعبودات تخلق وترزق وتضر وتنفع لبينوا هذا، لا سيما وهم يحبونها محبة عظيمة كمحبة الله أو أشد: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فهؤلاء المشركون ما كان ينقصهم محبةٌ لآلهتهم وتعظيمٌ لها حتىٰ يتورعوا عن نسبة معاني الربوبية إليها إن كانوا يعتقدونها، لكن الواقع خلاف ذلك، ألم يخبر الله ﷻ عنهم أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣] فقط ما نعبدهم لأنها خلقتنا أو ترزقنا، أو تحيينا وتميتنا، كلا، إنما فقط لأجل أن تقربنا إلىٰ الله ﷻ، ويقول الله ﷻ عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

إذن هذه هي خلاصة ما يعتقدون لا أكثر، أنها شافعة لهم عند الله ﷻ، ولا تملك من الأمر شيئًا، في صحيح مسلم أخبر النبي ﷺ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين في الجاهلية كانوا يقولون في تلبيتهم **"لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك"** اللات والعزىٰ ومناة هذه مملوكة ضعيفة لا تملك شيئًا، الله ﷻ هو الذي يملكها، ما كانوا يعتقدون فيها أكثر من ذلك.

المِلك، والمُلك، والتدبير، إنما كان لله ﷻ في اعتقادهم، ومع ذلك لم يزالوا مشركين.

الدليل الرابع: قول الله سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] سبحان الله العظيم، يؤمنون ويشركون في الوقت نفسه، نعم هذه هي الحقيقة، يؤمنون بالشيء ومع ذلك ما أخرجهم هذا الإيمان من حقيقة الشرك، قال ابن عباس ﷺ في تفسير الآية: "من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال، قالوا: الله، وهم يشركون".

إذن إيمانهم بأن الله هو الخالق الرازق ما نفعهم في ارتفاع وصف الشرك والكفر، ولا نفعهم في اكتساب وصف الإيمان والإسلام، بل هم مؤمنون إيمانًا جزئيًا لا يكفي، الإيمان بربوبية الله ﷻ مالم ينضم إليه الإيمان بعبادته وحده لا شريك له، لم ينفعهم ذلك، وبالتالي لم يزالوا يترددون في هوة سحيقة من الشرك والكفر -عافانا الله وإياكم من ذلك-.

النوع الخامس من الأدلة: أن الله سبحانه لو تأملت أوامره لهؤلاء المشركين ونواهيه لهم، لما وجدت فيه أمرهم بتوحيد الله في الخالقية، ولا بتوحيده في الرازقية، وإنما تجد الأمر بتوحيد الله ﷻ في العبادة؛ لأن هذا هو مَكْمَنُ الخلل عندهم لا غيره، ولذا تأمل في كتاب الله، تأمل أول أمر في كتاب الله ما هو؟ أول أمر إذا فتحت المصحف ستجده ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ولا تجد في هذا الموضع ولا في غيره، يا معشر المشركين اعتقدوا أن الله هو الخالق، لا تعتقدوا في آلهتكم أنها تخلق من دون الله أو ترزق من دون الله أو تدبر من دون الله، لن تجد هذا، إنما تجد الأمر بالتوحيد، وتجد النهي عن الشرك في العبادة.

أول نهي في المصحف إذا فتحته ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شركاء معه في العبادة، وأنتم تعلمون أن الله هو الخالق الرازق المدبر وحده، ما هذا التناقض، تعتقدون أن الله يخلقكم، وأنتم تعبدون غيره، تعتقدون أن الله يرزقكم وأنتم تتوجهون لسواه، هذا قبيح في العقول، لا يَحِلُّ لكم ذلك، هكذا تجد كتاب الله ﷻ يحتج عليهم بما يؤمنون به من الربوبية علىٰ ما ينكرونه من الألوهية لله ﷻ وحده.

إذن إذا فهمنا هذه المسألة المهمة، وهذه القاعدة العظيمة، تبين لنا ما هو التوحيد الذي أمرنا الله ﷻ به؟ اعتقاد أن الله ﷻ هو الخالق الرازق، هذه قضية لا شك أن هي الأساس، وهي التي يجب أن تقع في القلب مسلمة، ثم ينبني عليها غيرها، توحيد الربوبية هو الأصل ولكنه لا يكفي، ويجب أن ينضم إليه إفراده ﷻ بالعبادة، فكما أنه لا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا محيي إلا الله، ولا مميت إلا الله، فيجب أن لا يُدعىٰ إلا الله، ولا يُذبح إلا لله، ولا يُنذر إلا لله، ولا يُسجد إلا لله، ولا يُركع إلا لله.

إذن مالم ينضم هذا إلىٰ هذا ما انتفع الإنسان بهذا المُعتقَد، وبهذا يتبين لك خطأ كثير من الناس حينما حصروا مفهوم الإيمان والتوحيد في توحيد الربوبية، وبالتالي فمن اعتقد عندهم أن الله هو الخالق وحده فإنه قد حقق الإيمان والتوحيد، وبالتالي فإنه لو فعل ما فعل فلا يضر إيمانه وتوحيده شيئًا.

لا واللهِ الأمر ليس كذلك، لو سألت كثيراً من الناس ما معنىٰ لا إله إلا الله؟

هذه الكلمة العظيمة التي هي مفتاح الإسلام، ومفتاح دار السلام، هذه الكلمة العظيمة الطيبة التي لا يمكن لأحد أن ينجو مالم يأت بها قولًا وعملًا واعتقادًا، ما معناها؟ أظن أنك لو سألت كثيراً من الناس لوجدت أن منهم فئة لا تعرف معناها الذي أراده الله، وأراده رسوله ﷺ، فتجدهم يقولون لا خالق إلا الله، "لا إله إلا الله" تعني لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله، أو تجدهم يقولون : لا قادر علىٰ الاختراع إلا الله، أو تجدهم يقولون لا مستغنيًا عما سواه، ولا مفتقراً إليه كل ما عداه إلا الله.

يا قوم هذا الذي تذكرونه عقيدةٌ كان يعتقدها أبو جهل وأبو لهب، هذه هي الحقيقة.

من اعتقد أن معنىٰ لا إله إلا الله : لا قادر علىٰ الاختراع إلا الله، فإنه أتىٰ بشيء كان يعتقده أبو جهل وأبو لهب وما نفعهم، لا شك ولا ريب أن هذا حق، ولكنه حق وباطل، حق: في أنه لا خالق إلا الله، لكنه باطل: في تفسير لا إله إلا الله بذلك.

تفسير لا إله إلا الله الحق الصواب: إنما هو لا معبود حق إلا الله، الذي تدل عليه لا إله إلا الله بدلالة المطابقة هو توحيد الألوهية لا توحيد الربوبية، توحيد الربوبية تدل عليه لا إله إلا الله بدلالة اللزوم، أما بدلالة المطابقة فإنها دالة علىٰ توحيد الله ﷻ بالعبادة.

ولذا لما صدع النبي ﷺ بدعوته وقال: للمشركين قولوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا» ماذا كان جواب المشركين؟ ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾

[ص: ٥]، هذا هو ردهم وهو رد يتسق مع اعتقادهم، ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ﴾ آلهة كثيرة بالمئات كانت عند بيت الله ﷻ وبعيدًا عن بيت الله بل في كل مكان، تُريدنا أن نتركها جميعًا ونتجه إلىٰ معبود واحد وهو الله ﷻ هذا لا يمكن أن يتأتىٰ في اعتقاهم لعظيم تعلقهم بهذه المعبودات والآلهة ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ وما كان الأمر عندهم يتعلق بخلق الله ﷻ وحده، أو اعتقاد أن هذه الأصنام تخلق،كلا واللهِ، فإنه لو كانوا يعلمون أن معنىٰ لا إله إلا الله أنه لا خالق إلا الله، لما أسهل عندهم من أن يقولوا نحن نعتقد ذلك قبل أن تأتينا يا رسول الله، نحن نعتقد أن الله هو الخالق، وأن الله هو الرازق، لكن المسألة التي عليها مدار الخلاف بين النبي ﷺ والمشركين هي قضية التوحيد في العبادة، لا قضية التوحيد في الربوبية.

ما معنى إله؟ إله في اللغة: بمعنىٰ معبود، إله فعال بمعنىٰ مفعول، كتاب بمعنىٰ مكتوب، فراش بمعنىٰ مفروش، فعال بمعنىٰ مفعول، إذن إله بمعنىٰ مفعول، وأَلَهَ في اللغة تعني عَبَدَ، تَأَلَّهَ : يعني تَعَبَّد.

لله درُّ الغانيات المُدَّهِ ... سَبَّحن واسترجعن من تألُّهِ

يعني تعبد، هذا الذي لا تعرف العرب في لغتها سواه، ولذا تأمل معي في قصة إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، ماذا قال لأبيه وقومه، قال لأبيه آزر ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا﴾ خالقة! أصنامًا رازقة! الجواب: لا، ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤] لتكون لك آلهة، معبودة عند الله ﷻ.

لم نقول معبودة؛ لأن هذه حقيقة الآلهة، ولذا تجد في موضع آخر، يقول الله ﷻ في بيان محاورته لأبيه وقومه ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ (١) الأصنام هي الآلهة التي كانوا يعبدونها، أليس كذلك؟ ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا﴾ ماذا؟ يعتقدون خالقيتها ورازقيتها؟ كلا ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣].

إذن آلهة يعني معبودة، يعني يُتوجه لها بالعبادة، إذن لا إله يعني لا معبود حق إلا الله ﷻ.

هذه قضية من الأهمية بمكان، كم من الناس من يجهل هذه الحقيقة المهمة وإذا أردت أن تعرف حجم هذا الخطأ الكبير في معنىٰ لا إله إلا الله، وفي حقيقة الإيمان والتوحيد، فدونك هذه المقابر الشاهقة، وهذه المقامات العظيمة، وانظر في الطائفين عندها، وانظر في الساجدين لها، وانظر في الذابحين والداعين، انظر في حالهم كيف أنهم يقولون لا إله إلا الله، ومع ذلك يسجدون لها ويذبحون، وينذرون، ويطوفون، سبحان الله العظيم، كيف اجتمع عند هؤلاء هذا الأمر الذي أَنِفَ منه المشركون، أَنِفَ المشركون من أن يقولوا ما لا يعتقدون، أو أن يعملوا ما يناقض أقوالهم، ما قالوا لا إله إلا الله لأنهم علموا أنهم لو قالوا لا إله إلا الله لما عبدوا إلا الله، ولتركوا جميع معبوداتهم، لكن هؤلاء الذين أخطؤوا هذا الخطأ العظيم الفاحش، تجدهم يرددون لا إله إلا الله، ومع ذلك يتوجهون لغير الله، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، لو علموا معنىٰ

(١) ذكر الشيخ حفظه الله هنا لفظ الأصنام بدل التماثيل والآية هي التماثيل كما أثبتها

لا إله إلا الله حقًا لكانت لهم رادعة، ولكانت لهم سببًا في ترك عبودية غير الله ﷻ، لا إله إلا الله يعني أن تعبد الله وحده وأن تترك عبادة ما سواه ﷻ، وهذا هو ما تدل عليه نصوص الكتاب والسنة، ولذا الحديث المعروف المشهور عند أكثر المسلمين قال ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسَةٍ، شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ... إلخ »، جاء في رواية في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ، عَلَىٰ أَنْ يُعْبَدَ اللهُ، وَلاَ يُشْرَكَ بِهِ شَيء» هذه الرواية مفسرة لرواية لا إله إلا الله، ما معنىٰ لا إله إلا الله في الرواية الأولىٰ: هو أن يعبد الله ولا يشرك به شيئًا، وليس أن يعتقد أنه الخالق الرازق وحده، تأتي إلىٰ هؤلاء الذين يُتوجهون إلىٰ غير الله بالعبادة وتقول: يا قوم هل تقولون لا إله إلا الله؟ يقولون: نعم، فيُقال لهم: كيف تشركون مع الله، ستجدهم يقولون : وكيف أشركنا مع الله نحن ما أشركنا مع الله، نحن نعتقد أن الله هو الخالق، نحن نعتقد أن الله هو الرازق، نحن نعتقد أن الله هو المحيي المميت، فيُقال لهم: هذا القدْر لا يكفي وليس هذا هو معنىٰ لا إله إلا الله، ولو كان هذا هو معنىٰ لا إله إلا الله لما كان ثمة خلاف بين النبي ﷺ والمشركين، ما كان هناك خلاف، إنما معنىٰ لا إله إلا الله، وإنما معنىٰ وحقيقة لا إله إلا الله هو أن يعبد الله وحده ولا يشرك به أحد سواه ﷻ.

إذن هذه الحقيقة يجب أن تكون ماثلة أمام أعيننا وأذهاننا، إذا أردنا أن نكون موحدين صادقين لله ﷻ، التوحيد الذي كان مدار الخلاف ين الأنبياء وأممهم جميعًا، ما كان هو في توحيد الربوبية، نعم من الأمم ما كان عنده خلل في توحيد

الربوبية، منهم الدهرية، ومنهم ملاحدة، ومنهم من يعتقد أن غير الله ﷻ يخلق كالمجوس، ولكن لا يزال هؤلاء شذاذًا، فغالب الأمم كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق الرازق وحده، ومع ذلك كانوا مشركين وكانوا كفارًا وحكم الله عليهم ورسوله بل أنبياؤه عليهم السلام جميعًا بالكفر والخلود في النار، مالم يعتقد الإنسان أن الله الخالق الرازق وأنه المعبود وحده لا شريك له، ويوحده بجميع أنواع العبادة فإنه لا يكون قد أتىٰ بلا إله إلا الله ولا ينفعه هذا الذي يعتقد، ولا ينفعه نطقه بلا إله إلا الله ولو كرر هذا آلاف المرات، ولو كرر هذا عدد الأنفاس لا ينفعه مالم يعلم حقيقتها، ومالم يعلم معناها، ثم أن يعمل به علىٰ الوجه الصحيح، مالم يكن كذلك، فإنه لا ينتفع بلا إله إلا الله.

المعنى الصواب والحق لِـ(لَا إله إلا الله): هو أن تعبد الله وحده وأن تترك وأن تكفر بكل عبادة سواه ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ قضية تدور علىٰ العبادة ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] حتىٰ توحدوا الله وحده بالعبادة، إن كان الأمر كذلك ينتهي الأمر بيننا وبينكم من الخلاف ونصبح إخوانًا متحابين، مالم يكن الأمر كذلك فإن الصلة منقطعة بين الموحد والمشرك، والمؤمن والكافر، هذا هو معنىٰ لا إله إلا الله الذي ينفعك يا عبد الله عند الله ﷻ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

القاعدة الثانية: أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة، فدليل القربة قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمَر: ٣].

ودليل الشفاعة قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة.

فالشفاعة المنفية ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، والشفاعة المثبتة هي التي تطلب من الله، والشافع مُكرَم بالشفاعة، والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الشرح

هذه القاعدة الثانية من القواعد الأربع التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الرسالة النافعة، مضىٰ معنا في القاعدة الأولىٰ تقرير مهم، مضمون القاعدة

الماضية أن المشركين الذين بُعث النبي ﷺ فيهم وعرض عليهم دعوته وأَبَوْا قَبولها وكَفّرهم ﷺ وقاتلهم، كانوا يؤمنون بأن الله ﷻ هو الخالق وحده الرازق وحده، المدبر وحده، ومع ذلك فإن هذا القدْر ما أدخلهم في الإسلام ولا عصم دمائهم وأموالهم، فدل علىٰ أن الإيمان والتوحيد شيء وراء ذلك، اعتقاد أن الله هو الخالق والرازق، وأيضًا اعتقاد أنه لا يستحق العبادة سواه، ثم القيام بالعبادة لله ﷻ فعلًا دون إشراك معه، قد يقول قائل : إذن إذا كانوا لا يعتقدون أن أصنامهم وآلهتهم من دون الله ﷻ لا تخلق ولا ترزق ولا تدبر، إذن لماذا عبدوها مع الله، لماذا تعلقوا بها هذا التعلق الشديد حتىٰ إنهم بذلوا في سبيلها ولأجلها دمائهم وأموالهم وأعراضهم دون أدنىٰ تردد، ما هو السبب الذي لأجله كفروا بالله ﷻ ؟

الجواب: أنهم اعتقدوا في هذه الآلهة التي عبدوها مع الله، أن هذه الآلهة تقربهم إلىٰ الله، وتشفع لهم عنده، إذن اتخذوها لتقربهم إلىٰ الله وتكون لهم شفيعة عنده ﷻ.

القوم أُتوا من جهة قياس فاسد، ضربوا لله الأمثال، قاسوه بملوك الدنيا الذين لا يُطلب منهم مباشرة، إنما يقولون : الأدب هو أن لا تواجه هذا العظيم، وهذا السيد، وهذا السلطان، وهذا الملك، لا تباشره بالسؤال، إنما ارفع حاجتك إلىٰ المقربين عنده وهم يرفعون حاجتك إلىٰ الله هذا هو الأدب وهذا هو المناسب !

وثانيًا: أنك لو توسطت بهؤلاء المقربين إلىٰ الملك، فإن هذا أنجح في تحصيل مطلوبك، بخلاف ما إذا تقدمت أنت بالسؤال مباشرة، ربما تجاب وربما لا، لكن لو أن الذي توسط لك من هو مقرب عنده فأبشر: مطلوبك سيأتيك.

قال المشركون فنحن مذنبون خطاؤون متلطخون بدنس الذنوب، فكيف لنا أن نجرؤ علىٰ أن ندعو الله ﷻ مباشرة، وأن نتقرب إليه مباشرة، هذا شيء يتنافىٰ والأدب، إذن علينا أن نتوجه إلىٰ أصفياء الله، وأولياء الله، والمقربين إلىٰ الله من الأنبياء والصالحين والملائكة وغيرهم.

فنحن نتوجه إليهم وهم يتوجهون إلىٰ الله، نحن نسألهم، وهم يسألون الله، وهذا ثانيًا أدعىٰ للقَبول وأدعىٰ لتحصيل المقصود، إذن هاهنا كان مكمن خطأ هؤلاء، أرادوا من هذه المعبودات مع الله أن تقربهم إليه زلفىٰ ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٤] انظر إلىٰ هذا الأسلوب الذي يفيد في اللغة العربية الحصر، يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ (ما) و(إلا) تفيد الحصر، إذن هذا هو السبب الوحيد الذي نعبد هذه المعبودات لأجله، تقربنا إلىٰ الله وتجعل الله يرضىٰ عنا، ولاحظ أن القوم لم يكن لهم همة في الآخرة، عامة المشركين الذين بعث فيهم النبي ﷺ ما كانوا يؤمنون ببعث بعد الموت وحساب وجزاء وجنة ونار، بل كانوا ينكرون هذا أشد الانكار ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ

جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨]، إنما كانوا يريدون التقريب عند الله ليرضىٰ عليهم ويحبهم وينعم عليهم في الدنيا، يريدون تحصيل المطالب الدنيوية ودفع المكاره عنهم، يريدون أن تكون شفيعة لهم عند الله في تحصيل مقاصدهم، والله ﷻ وصفهم بقوله: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

إذن أشركوا مع الله لما اعتقدوا هذا الاعتقاد.

وفي الآية السابقة، آية التقريب زلفىٰ عند الله، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾ [الزُّمَر: ٣] إي واللهِ، كذبوا علىٰ الله، كذبوا حين زعموا أن هذه المعبودات التي توجهوا إليها اللات، وعزىٰ، ومناة، وإساف، ونائلة وغيرها من هذه المعبودات من دون الله كذبوا واللهِ حين زعموا أنها تقرب إلىٰ الله، أو أن التوجه إليها تقرب زلفىٰ عند الله، حاشا وكلا، بل لا شيء يقرب إلىٰ الله إلا توحيده، إلا عبادته، إلا اتباع نبيه محمد ﷺ.

إذن الشيء المهم الذي ينبغي أن يستقر في القلوب والأذهان اعتقاد أن سبب عبادة غير الله ﷻ عند هؤلاء المشركين إنما هو هذا الأمر، أنهم أرادوا أن تقربهم إلىٰ الله وأن تشفع لهم عنده؛ ولأجل هذا اتخذوا هذه الأصنام، اعتقدوا أن المعبودات التي تقربهم إلىٰ الله.

وهي لا تخرج عن أن تكون أمرين: إما أن تكون معبودات أرضية، أو تكون معبودات سماوية، إما أن يكون القريب إلىٰ الله الشفيع عند الله وليًا صالحًا من أولياء الله، أو يكون ملكًا من الملائكة، أو روحانيات عند بعض المشركين كالكواكب الشمس والقمر حتىٰ عبدوها من دون الله.

فاتخذوا لأجل ذلك صورًا وأصنامًا فهذه تجسد هذا القريب إلىٰ الله، فهم لا يريدون أن هذا الحجر الذي كسروه بأيديهم أو ذاك الخشب الذي نحتوه لا يعتقدون أنه هو بذاته يقربهم إلىٰ الله ﷻ إنما هو صورة إنما هو مثال يتوجهون إليه ويستحضرون المعبود الذي أرادوه، من مَلَكٍ أو ولي صالح أو ما شاكل ذلك، إذا توجهوا بهمتهم إلىٰ هذا المُمثَّلِ أمامهم في صورة صنم أو شجر فإن روح هذا المقصود الذي يطلب مع الله ﷻ سوف تَقْبَلُهُم وترفع حاجاتهم عند الله ﷻ، هكذا كان حذاقهم يعتقدون، وإلا فالسفل والجهل منهم كانوا يتوجهون إلىٰ هذه الأحجار بذاتها، لكن عقلائهم يفهمون أن هذه الأحجار ليست هي المقصودة، إنما هي مثال تجمع فيه الهمة المقصودة وهي المعبود الذي يقرب إلىٰ الله ﷻ.

إذن القوم أُتوا من جهة قياس فاسد، جعلوا رب العباد، أرحم الراحمين، أحكم الحاكمين الذي هو علىٰ كل شيء قدير، والذي هو أعلم بكل شيء، وهو بكل شيء عليم، جعلوه من جنس الملوك الذين لهم حُجّاب، ولهم أصفياء، ولهم مقربين وجلساء، فلا يناسب أن تقدم إليهم الطلبات مباشرة، إنما هو يتوجهون إليهم وهم يرفعون الحاجات إلىٰ الله ﷻ.

وكذلك يشفعون لهم عند الله ﷻ ومسألة الشفاعة من أهم المسائل التي ينبغي علىٰ المسلم أن يُحسن فهمها في ضوء نصوص الكتاب والسنة، فإن التعلق بأذيال الشفاعة الباطلة كان سبب شرك المشركين قديمًا وحديثًا.

أما قديمًا فكما سمعت ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وأما حديثًا فحدث ولا حرج من حال الذين توجهوا برغبتهم ورهبتهم وبدعائهم وذبحهم ونذرهم لغير الله ﷻ بدعوىٰ أن هؤلاء يشفعون لهم عند الله ﷻ، هي هي الحجة.

الحجة والشبهة عند المتقدمين وعند المتأخرين واحدة، واللهِ ما اختلفت، هؤلاء اعتقدوا أن الأصنام اللات والعزىٰ ومناة وهبل تشفع لهم عند الله ﷻ، والمشركون المحدثون اعتقدوا أن النبي ﷺ أو الولي أو الجن أو الْمَلَك يشفع لهم عند الله ﷻ

الشبهة هي هي، ولا شك أن هذا تعلق باطل، أُتِيَ هؤلاء من جهة عدم فهمهم للشفاعة التي أثبتها الله ﷻ، وعدم إدراكهمُ الشفاعةَ التي نفاها الله ﷻ، تأمل يا رعاك الله، لم إذا قرأت في كتاب الله وجدت أن الغالب إذا ذُكِرَتِ الشفاعة أن تكون منفية، تأمل هذا في نحو عشرين موضعًا في القرآن، في أغلب المواضع التي جاء فيها ذكر الشفاعة كانت منفية، ولا تكاد تجدها مثبتة في القرآن إلا استثناء.

السبب أن الله تعالىٰ يريد منا عبادة : أن لا نظن أن الشفاعة التي أثبتها عنده هي الشفاعة التي يعرفها الناس في الدنيا، شفاعة المخلوق للمخلوق ليست هي المقصودة وليست هي التي أثبتها الله ﷻ للأنبياء وللصالحين وللملائكة يوم القيامة، لا والله ليست كذلك، ولأجل ذلك الله ﷻ كرر نفي الشفاعة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] تجد أمثال هذا في القرآن في مواضع.

اعلموا يا عباد الله أن الشفاعة التي أثبتها الله شيء آخر، اخْلَعْ من قلبك تَصَوُّرَ أن الشفاعة عند الله من جنس شفاعة المخلوق عند المخلوق، لا واللهِ ليس الأمر كذلك.

الفرق بين الشفاعة التي تكون بين المخلوقين، والشفاعة التي تكون عند الله ﷻ يوم القيامة، الفرق بين هذه وهذه، هو الفرق بين الإيمان والكفر، هو الفرق بين التوحيد والشرك، شفاعة المخلوق إلىٰ المخلوق، الشفاعة التي تكون من مقرب ومسموع الكلمة عند الحاكم أو السلطان أو الوالي، هذه الشفاعة لا تستلزم حاجة الشافع للمشفوع عنده -يعني للذي يُشفع إليه- لا تستلزم الحاجة إليه لا خلقًا ولا أمرًا ولا إذنًا، فهو يشفع عنده وهو مستغنٍ عنه، إنما هو متفضل علىٰ المشفوع له، وإلا فالشفيع عنده أو المشفوع إليه هو مستغنٍ عنه، هو ندٌّ له، مخلوق مثله، وهو ليس -أعني المشفوع عنده- خالقًا له ولا الذي يشفع بأمره، ليس هو الذي يقول له : اشفع يا فلان، هو من عنده يبادر إلىٰ الشفاعة، ولا يحتاج إلىٰ أن يأمره الشفيع عنده بأن يشفع، ولا أن يأذن له، بل يبادره مباشرة بالشفاعة ولو كان المشفوع عنده ولو كان الحاكم كارهًا ذلك.

إذن هي شفاعة مستغنٍ عن غيره إلىٰ هذا المشفوع عنده، ثم إن هذه الشفاعة أيضًا هي المحركة للمشفوع عنده علىٰ أن يقبل، تجد أن الشخص الذي يشفع.

والغالب أن هذه الشفاعة في الدنيا لا تخرج عن حالتين: إما شفاعة وجاهة، وإما شفاعة محبة.

أما شفاعة الوجاهة: كأن يشفع الوجيه عند الوالي أو الحاكم أو صاحب الأمر، كأن يكون وزيرًا أو رئيس الجند، أو تاجرًا كبيرًا أو ما شاكل ذلك، شخص له وجاهة يسأل الحاكم الشفاعة يقول أنا أشفع لفلان المذنب الذي في السجن أريدك أن تخرجه من السجن، يشفع عنده.

والنوع الثاني شفاعة محبة: أن يشفع عند الحاكم صديقه، زوجه، ابنه، شخص يصعب عليه أن يرده؛ لأنه لا يصبر علىٰ جفوته، لو رده مرة واثنتين وثلاثة سيغضب عليه، وهو لا يصبر علىٰ غضبه فتجد أنه لا بد له من أن يوافق، يوافق علىٰ هذه الشفاعة ويقبلها ربما رغمًا عنه، وأما في شفاعة الوجاهة فإنه يخشىٰ أنه إن رد هذه الشفاعة مرة واثنتين انفض هؤلاء الوجهاء عنه وما عادوا يصدقون معه، يذهبون إلىٰ لغيره، ويحكمون ويولون سواه، إذن فهو رغمًا عنه يوافق.

إذن تجد أن هذه الشفاعة أضحت مقبولة عند المشفوع عنده لرغبة أو لرهبة، المشفوع عنده له حاجة عند الشافع إما من جهة الرغبة، وإما من جهة الرهبة، هذا الأمر الثاني.

والأمر الثالث: هو أن الشافع أضحىٰ محركًا للشفيع عنده، يجعله يوافق وإن كان غضبانًا وإن كان كارهًا أن يُشفع عنده، أو أن يُتوسط لديه في فلان، وهو لا يريد أن يتوسط عنده أحد؛ لأنه غضبان عليه، هذا الذي سرق أو قتل، أو فعل ما فعل، هو يريد أن يوقع به العقوبة، فتجد أنه يكره أن يعفو عنه، لكن يأتي هذا الشافع فيغير إرادته، يجعله يوافق، إما بأن يوضح له مالا يعلم وأن المصلحة في تركه والعفو عنه، أو أنه يخوفه أنه ربما تحصل من المفاسد أشياء، ربما يرغبه يقول الناس والرعية سوف تنظر لك بعين الإعجاب، ربما لا يكون شيء من ذلك لكنه يخشىٰ إن لم يقبل هذه الشفاعة أن يحصل أمر من الأمور يكرهه بسبب هذا الشافع.

إذن أضحىٰ الشافع هو الذي حرك قلب وإرادة الشفيع عنده، وهل يظن هذا مسلم في الله ﷻ!

أيظن مسلم أن الله تعالىٰ إذا شفع عنده الولي المقرب أن الله تعالىٰ يقبل الشفاعة لأنه يرجوه أو يخافه! حاشا وكلا بل الله هو الغني، الله ﷻ مستغنٍ عن كل ما سواه وكل ما سواه مفتقر إليه.

أيعتقد الإنسان أن هذا الشافع هو الذي غيَّر إرادة الله ﷻ فجعله بعد أن كان غير مريد لرحمته راحمًا له، سبحان الله العظيم! ما هذا الظن، هذا الظن ظن السوء بالله ﷻ

حاشا وكلا، بل هذا التأثير نقص، واللهُ ﷻ لا شك أنه منزه عن كل نقص، هذا التأثير ناتج إما من إعلام الله بما لا يعلمه، وحاشا لله أن يكون لا يعلم شيئًا، بل الله بكل شيء عليم ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] أيريد هؤلاء أن هذا الشافع يؤثر علىٰ الله فيجعله راحمًا وهو أرحم الراحمين سبحانه، أو أن الله لا يقدر علىٰ أن يَحْصُلَ المطلوب إلا بضم قدرة الشافع إليه، وحاشا وكلا، بل الله ﷻ علىٰ كل شيء قدير، واللهُ سبحانه لا يُشفَّع، الله هو الوتر «إِنَّ اللهَ وِتْرٌ، يُحِبُّ الْوِتْرَ» فالله ﷻ هو الذي حرك الشافع ليشفع، لا أنه الذي حركه الشافع ليقبل، انظر إلىٰ الفرق العظيم بين هذا وذاك، القوم يعتقدون أن الشافع له مكانة، وله إدلال علىٰ الله، وله قدرة وله سلطان عند الله ﷻ، ولذا فإن الله تعالىٰ لا يرد له مطلوبه؛ لأنه من جنس هؤلاء الشفعاء في الدنيا الذين لا يتمكن المشفوع عنده من ردهم، واللهُ ﷻ أعظم من ذلك وأقدس ﷻ، منزه عن أن يُظن فيه هذا الظن بل الشافع محتاج إلىٰ الله، الشافع الله سبحانه هو الذي حرك قلبه لكي يشفع، الله هو الذي وفقه للطاعة والإيمان الذي به كان شافعًا، وهو الذي وفق المشفوع له إلىٰ التوحيد والإيمان الذي هو سبب قَبول الشفاعة فيه، واللهُ ﷻ هو الذي يأذن للشافع أن يشفع، واللهِ لا يستطيع أن يهمس بكلمة يوم القيامة إلا إذا أذن الله ﷻ له ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥] مقام عظيم، هيبة كبرىٰ، وَجَلٌ أعظم يستولي علىٰ القلوب لعظمة الله العظيم ﷻ، فلا أحد يجرؤ علىٰ أن يتكلم حتىٰ يأذن الله ﷻ بالكلام، ولذا تأمل قول الله ﷻ ﴿مَن ذَا

﴿ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] العلماء يقولون : إن النفي إذا جاء علىٰ صيغة الاستفهام، تضمن النفي وزيادة، تضمن النفي مع التحدي، من الذي يجرؤ علىٰ أن يشفع عند لله ﷻ دون أن يأذن الله ﷻ له أن يأذن، واللهِ إن هذا لا يكون، بل الشافع لا يشفع عند الله حتىٰ يأمره الله أن يشفع، إذن الشافع أضحىٰ مأمورًا لا يملك من أمره شيئًا، لا بد له من أن يستجيب لأمر الله ﷻ، ألم نسمع إلىٰ حديث النبي ﷺ وهو مخرج في الصحيحين حينما يطلب الناس من النبي ﷺ أن يشفع عند الله ﷻ في فصل القضاء، يخبر النبي ﷺ أنه يذهب فيسجد تحت العرش، ويحمد الله ﷻ بحامد يفتحها عليه في ذلك الوقت لا يحسنها في الدنيا، ثم بعد ما شاء الله من الوقت يقول الله ﷻ: «يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَه، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ» اشفع فعل أمر، إذن الله ﷻ هو الذي يأمر الشافع أن يشفع.

إذن الأمر راجع إلىٰ الله ﷻ، إذا فهمت هذه القضية، فهمت معنىٰ قول الله ﷻ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: ٤٤] الله ﷻ هو الذي يملك الشفاعة، وهو الذي يأذن في الشفاعة، وهو الذي يتفضل بقَبول الشفاعة، والشافع ليس منه شيء، ولا إليه شيء، حقيقة الأمر أن الله شفع من نفسه إلىٰ نفسه، فالله ﷻ هو الذي وفق الشافع للسبب الذي كان به شافعـًا، والله ﷻ هو الذي حرك قلبه لإرادة الشفاعة، والله ﷻ هو الذي يأذن لهذه الشفاعة، والله ﷻ هو الذي يأمر بهذه الشفاعة، ثم الله ﷻ هو الذي يتفضل بقَبول الشفاعة.

إذن الأمر كله من الله وإلىٰ الله، إذن القلوب في باب الشفاعة يجب أن تتعلق بالله، أما الشافع فإنه لا يملكها، الشافع ليس له من الأمر شيء، الشافع مُكْرَمٌ بالشفاعة، الله ﷻ غني عن هذه الشفاعة، الله قادر علىٰ أن يرحم ويغفر ويدخل الجنة ويخرج من النار بدون شفاعة، الله علىٰ كل شيء قدير، والله لا يعجزه شيء، إنما أرد سبحانه أن يكرم هذا الشافع ويرفع قدره في العالمين فيقبلَ شفاعته بعد أن يجعله شافعًا، إذن القضية إكرام من الله ﷻ للشافع، لا أن الشافع هو الذي غير إرادة الله ﷻ حاشا وكلا، إذن هذه القضية من الأهمية بمكان، من فهمها حق الفهم، نُزع من قلبه كل تعلق بغير الله، هؤلاء الذين تعلقت قلوبهم بالشفعاء، اعتقدوا أولًا هذه العقيدة الفاسدة، وأن الشفاعة في الآخرة عند الله هي الشفاعة التي يعهدها الناس في الدنيا، وقلنا : إن هذا من أبطل الباطل، فالشافع في الدنيا مستغنٍ عن المشفوع عنده، والأمر عند الله ليس كذلك، قلنا : إن الشافع يحرك قلب المشفوع عنده ليقبل، واللهُ يتعالىٰ عن ذلك.

قلنا إن الشافع في الدنيا يشفع بلا إذن ولا أمر ولا شيء إطلاقًا، وهذا لا يكون عند الله ﷻ، بل الرب ربٌّ، والعبد عبد، حتىٰ لو علت منزلة العبد يجب أن نستحضر هذا الرب ربٌّ، والعبد عبد، إذن يجب أن تتعلق القلوب بمن بيده مقاليد كل شيء ﷻ، ثم زاد هؤلاء المتعلقون بالشفعاء ضغثًا إلىٰ إِبّالة كما يقولون فأصبحوا يتعلقون بهؤلاء الشفعاء، ويبذلون لهم صفو المحبة التي يجب أن لا تكون إلا لله، التعلق القلبي، اعتقاد أن الأمر بيدهم، وأنه لو لم يشفع فلان فإنه ستحل الكارثة، لا أن الله ﷻ إن لم يرحم سيهلك لا، تجده يقول:

إِنْ لَمْ تكنْ فِي مَعَادِي آخِذًا بِيَدِيْ[1] فَضْلًا وإلاّ فَقُلْ يَا زلَّةَ القَدَمِ

سبحان الله العظيم، انظر كيف أن القلب تعلق بالشافع لا بالمشفوع عنده ﷻ، يا عبد الله ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: ٤٤] الأمر لله، هذه الشفاعة التي تفهمها وتتصورها من جنس شفاعة الناس في الدنيا، هذه يجب أن تلغيها، أن تمسحها من ذهنك تمامًا ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] هذه الشفاعة منفية غير موجودة، لا تقع ولا تكون عند الله ﷻ ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾.

قال قائل: كيف نقول ذلك ونحن نتوجه وتتعلق قلوبنا بالشافع، ونسأله الشفاعة؛ لأنه يملكها، أعطاه الله إياها، فنحن تعلقت قلوبنا به لهذا السبب الله أعطاه إياها فأصبح مالكًا لها، وهذا تصورٌ خاطئ، هذا الكلام غلط ليس بصحيح.

أولا: الله ﷻ قد رد ذلك بقوله ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزُّمَر: ٤٤] سبحان الله العظيم، كما أن الله له ملك السموات والأرض، لا شريك له في ذلك، كذلك له الشفاعة مِلْك لله ﷻ لا شريك له في ذلك، إن كنت تعتقد أن لغير الله مع الله ملك واستحقاق في السماوات والأرض فاعتقادك للشفاعة من هذا الجنس، لكن إن كنت تعتقد أن الله مالك السماوات والأرض وحده فإنك يجب أن تعتقد مالك الشفاعة وحده ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) يخاطب النبي ﷺ.

ثانيًا: الله ﷻ يأذن بالشفاعة للشافع في الآخرة، إذن هو يشفع، ويؤذن له بالشفاعة في الآخرة أما اليوم في الدنيا فإنه غير مأذون له بأن يشفع، يعني هذا الذي يأتي إلىٰ قبر نبي أو ولي ويسأله الشفاعة، وإذا قيل له يا عبد الله سَلِ الشفاعة ممن يملكها لا تقل : يا رسول الله اشفع لي عند الله، إنما قل يا لله شفع فيَّ نبيك، انظر إلىٰ الفرق بين الإيمان والتوحيد، الفرق بين الشرك والإسلام، فرقٌ بين أن تقول يا رسول الله، يذهب الآن الإنسان بعض الناس هدانا الله وإياهم، وفتح الله علىٰ قلوبنا وقلوبهم، وبصرنا وإياهم سواء سبيل، يذهب إلىٰ قبر النبي ويقول يا رسول الله اشفع لي عند الله، هذا غلط، دعاء غير الله ﷻ من الأموات شرك بالله سبحانه.

قال الله ﷻ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

إذن تشركون مع الله إن دعوتم الأموات، إنما الصواب أن تقول : يا الله السؤال يتوجه إلىٰ من يملك الشفاعة، يا الله شفع فيَّ نبيك، هذا مستقيم وهذا دعاء حسن، وهذا الذي ينبغي أن ندعو الله ﷻ به.

يقول هذا الإنسان : أنا أسأله ما يملكه، نقول الشفاعة لا يملكها إلا الله، ثم الله ﷻ إنما يأذن بها يوم القيامة لا في الدنيا، ثم إن الله ﷻ يأذن بها بعد أمور يفعلها النبي ﷺ، فهو يسجد تحت العرش، ويحمد الله بمحامد عظيمة، ثم يأذن الله ﷻ بعد ذلك بالشفاعة، ثم الله ﷻ هو الذي يأمر الشافع في أن يشفع، فكيف يكون مالكًا لها، ثم هذه الشفاعة التي يشفعها النبي ﷺ عند الله، الله ﷻ هو

الذي منحه إياها ليرفع درجة نبيه محمد ﷺ، لا أنه شيء يملكه كما يملك الإنسان حطام الدنيا فيتصرف بها كما يشاء، ليس الأمر كذلك، بل ليس كل من أعطاه الله شيئًا يوم القيامة يجوز أن يطلب ذلك في الدنيا، أليس الله وعد نبيه ﷺ الأنبياء والأولياء أرفع المنازل في جنات النعيم، أفيجوز لنا أن نتوجه لهؤلاء الأنبياء والأولياء أن يعطونا هذه المنازل في الجنة نسألهم نحن الآن نقول أعطونا هذه المنازل التي أعطاكم الله في الجنة؟ أليس هذه حقيقة الشرك ؟ واللهِ إنه لحقيقة الشرك، أليس الله ﷻ يعطي الشفاعة يوم القيامة للمؤمنين بل للأفراط والأطفال، الأطفال يشفعون عند الله ﷻ كما أخبر النبي ﷺ «صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ» دعاميص: جمع دُعْموص، دُوَيْبَة صغيرة تكون في الماء، كناية عن أنهم ملازمون للجنة، يجعلهم الله ﷻ أطفال المؤمنين في الجنة قال: «صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ يَأْخُذُ أَحَدُهُمْ يَومَ القِيَامَةِ بِثَوْبِ أَبِيه كَمَا آخُذُ بِصَنِفَةِ ثَوْبِكَ -أي:بطرفه- فَلَا يَتَنَاهَىٰ وَإِيَاهُ حَتَّىٰ يُدْخِلَهُ اللهُ ﷻ الْجَنَّةَ».

إذن جعل الله ﷻ لأطفال المؤمنين شفاعة في والديهم، أفيجوز عند جميع المسلمين أن يتوجه الإنسان بالدعاء لطفل صغير قد مات لكي يشفع له عند الله! وهل هذا إلا من دين المشركين الذين بعث النبي ﷺ في التحذير من مسلكهم ونهجهم، بل جعل النبي ﷺ شفاعة وشهادة لبعض الجمادات، الحجر الأسود يشهد ويشفع لك عند الله، هل يجوز في قول أحد من المسلمين أن يسأل الإنسان الحجر الأسود أن يكون شفيعًا له عند الله؟ أفيقول هذا مسلمًا، توجه يقول يا أيها الحجر الأسود أسألك وأدعوك أن تشفع لي عند الله!

إذن هـذا الـذي يقـول أنـا أسـأل الشـفاعة مـن يملكهـا أخطـأ خطئـًا عظيمًـا، الشفاعة لا يملكها إلا الله، والشفاعة إنمـا يـأذن الله بهـا يـوم القيامـة، يـوم القيامـة نعـم، النـاس يستشـفعون إلـىٰ وعنـد رسـول الله ﷺ، يـذهبون ويقولـون سـل لنـا ربك، اشفع لنا عند ربك ألا ترىٰ مانحن فيـه؛ لأنهـم حـين ذاك يسـألون أن يتقـدم بالشفاعة بين يدي الله ﷻ في الوقت الذي يـأذن الله ﷻ بـه، أمـا قبـل ذلـك فلـيس للإنسان أن يسأل هذا الميت، ثم إن الميت وهو في قبره لا يملك شيئًا، أي سؤال يتوجه به الإنسان إلىٰ الميت، هو سؤال لشيء لا يقدر عليه الميت فهو شـرك مـع الله ﷻ أليس النبي ﷺ قد قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاث».

إذن الميت لا يملك أن يشفع لك والميت لا يملك في قبره أن يسأل لك، إذن توجه يا عبد الله إلىٰ الله العظيم الذي بيده ملكوت كل شيء، والذي يقول ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ ماذا؟ احتاج إلىٰ شفاعة وواسطة؟ لا واللهِ ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

إذن القلـوب يجـب أن تتوجـه إلـىٰ الله سـبحانه، يجـب أن تعتصـم بـالله ﷻ، يجب أن يكون الله ﷻ في القلوب أحب إليها مـن كـل شـيء، الـذي ترجـوه فـوق كل رجاء، وتخافه فوق كل خوف، تجعل السؤال والاستغاثة والـدعاء كـل ذلـك يُتوجه به إلىٰ الله ﷻ وحده لا إلىٰ غيره، هذا هو حقيقة التوحيد، هـذا هـو حقيقـة الإيمان الذي بعث به النبي محمد ﷺ، أما التعلق بغيـر الله ﷻ فهـذا هـو الشـرك الذي جاء النبي ﷺ ببيانه والتحذير منه.

إذن نَخْلُصُ إلىٰ أن الشفاعة بحسب ورودها في القرآن جاءت علىٰ قسمين كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

أولًا: شفاعة منفية.

ثانيًا: شفاعة مثبتة.

شفاعة منفية: يعني لا تكون، هذه الشفاعة يتصورها الناس في أذهانهم، ولكن في الواقع وفي الحقيقة لا وجود لها بهذه الصورة، هذه الشفاعة المنفية **ترجع إلى صور:**

أولًا: الشفاعة فيمن لا يرضىٰ الله عنه، وهم الكفار، الكفار لا شفاعة فيهم، الله ﷻ نفىٰ الشفاعة في حقهم، واللهِ لا يشفع أحد في كافر إلا باستثناء، استثنىٰ الله ﷻ إكرامًا لنبيه الشفاعة في أبي طالب في تخفيف العذاب لا في الإخراج من النار، فقط هو المستثنىٰ، أما من عداه من الكفار فإنه لا يُشفع فيهم، هذا واحد.

ثانيًا: الشفاعة التي يُظن أنها تكون بلا إذن من الله، إنما يتقدم فيها الإنسان مباشرة بين يدي الله ﷻ دون أن يأذن الله بذلك هذا لا يكون ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ثالثة: الشفاعة التي تطلب من غير الله، هذه منفية؛ لأن الله حَكَم، وهو أحكم الحاكمين سبحانه أن الشفاعة له ﷻ وحده ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: ٤٤].

أربعة: الشفاعة التي يعهدها الناس في الدنيا، شفاعة الرغبة والرهبة، شفاعة الوجاهة أو المحبة، هذه منفية، إياك أن تظن أن الشفاعة تكون كذلك عند الله ﷻ، إذن هذه هي الشفاعة المنفية ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

أما الشفاعة المثبتة: التي تكون يوم القيامة، فإن هذه الشفاعة صحيحة وثابتة بشرطين:

إِذْنُ الله ﷻ للشافع أن يشفع، ورضىٰ الله ﷻ عن المشفوع له ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ هذا واحد، اثنان، ﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] يرضىٰ عن المشفوع له، إذا توفر الأمران فإن الشفاعة تكون ثابتة.

من الذي يرضى الله ﷻ عنه؟

الجواب: الله لا يرضىٰ إلا عن أهل التوحيد، أخبر النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق عليه السلام: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ» قال ﷺ: «وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا».

إذن يا عبد الله إذا أردت أن تكون من أهل الشفاعة فعليك بالتوحيد استمسك به، شرط حصول الشفاعة أن يكون المشفوع له من أهل التوحيد ليس من أهل الشرك، ويا لله العجب انظر إلىٰ هذه المسألة التي هي من العجائب، أن من الناس من يتعلق قلبه بالشفاعة، ويطلبها بالسبب الذي يكون مانعًا منها، عجيب والله، يرغب في الشفاعة ويطمح إلىٰ الشفاعة، وهمته مجموعة علىٰ الشفاعة فيطلبها بالسبب الذي يمنعه منها، كيف؟ يشرك بالله ﷻ فيسأل الشفاعة من غير الله ﷻ فيقع في الشيء الذي يُحرم بسببه من الشفاعة، سبحان الله العظيم.

إذن لا شيء يحصل به هذا الأمر الذي ترجوه يا عبد الله وهو شفاعة النبي ﷺ وشفاعة الشفعاء يوم القيامة لا شيء يحُصّل ذلك إلا توفيق الله ورحمته أولًا، ثم الاستمساك بالتوحيد، أن يتعلق قلبك بالله، أن لا تشرك بالله شيئًا «فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا» إذن هذه هي الشفاعة المثبتة التي تكون بعد إذن من الله، ورضىٰ في المشفوع له، وأما الشفاعة المنفية فهي ما قد علمت.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

القاعدة الثالثة: أن النبي ﷺ ظهر علىٰ أناس متفرقين في عبادته، منهم من الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، وقاتلهم رسول الله ﷺ ولم يفرق بينهم.

الشَّرْح

هذه القاعدة الثالثة من القواعد الأربع التي أودعها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة الماتعة العظيمة ألا وهي أن النبي ﷺ بُعث والناس يعبدون معبوداتٍ شتىٰ، ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبعة معبودات كان الناس في الجاهلية إبّان بعثة النبي ﷺ يعبدونها مع الله، وسيورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدليل علىٰ عبادة كل واحد من هذه المعبودات، فمنهم من كان يعبد الشمس، ومنهم من كان يعبد القمر، ومنهم من كان يعبد الأنبياء، ومنهم من كان يعبد الصالحين، ومنهم من كان يعبد الأشجار، ومنهم من كان يعبد الأحجار، ويزاد علىٰ ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن منهم من كان يعبد الكواكب، فإن طوائف من العرب كانت تعبد الكواكب، وربما صنعت تمثالًا يُجسدها يتوجهون إليه، والكوكب هو المقصود، ومن ذلك أن طوائف من تميم كانت تبعد الدَّبَران، وبعض قريش كانت تعبد الشِّعْرىٰ، ولذا رد الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩] أيضًا كان منهم من كان يعبد الجن، وهؤلاء طوائف منهم كثير منهم من الأعراب الذين جاء في حقهم قول الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ [الجن: ٦]، وكذلك ذكرت كتب التاريخ أن بعض خزاعة كانت تعبد الجن، أيضًا مما كان يعبده أهل

الجاهلية أيضًا من العرب إبان بعثة النبي ﷺ : النار، فإنه قد تسلل إليهم من المجوس عبادة النار، بعض تميم وغيرها من القبائل أيضًا كانت تعبد النار، إلىٰ غير ذلك مما تنوعت إليه هذه العبادات الجاهلية الضالة التي كان عليها المشركون قبيل بعثة النبي ﷺ، بل قبل ذلك بمدة طويلة، بُعث النبي ﷺ ولم يفرق بين هذه المعبودات وبين هؤلاء العابدين، بل كان النبي ﷺ يحكم فيهم حكمًا عامًا من أولهم إلىٰ آخرهم، كلهم كفار مشركون جاهدهم في سبيله ﷻ، ولم يكن يفرق بين من يعبد نبيًا أو صالحًا وبين من يعبد حجرًا أو شجرًا، فكل من لم يعبد الله ﷻ فهو كافر مشرك، مهما كان معبوده الذي يُتوجه إليه بالعبادة، هذه هي الخلاصة التي أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يصل إليها، وبالتالي تنكشف لك يا عبد الله شبهة بعض دعاة الشرك، ومروجي دين الجاهلية، وهي أنهم إذا احتج عليهم أهل التوحيد بالأدلة التي تنفي الشرك وتبين عواقبه الضارة، يقولون هذه النصوص قد جاءت في حق أناس كانوا يعبدون اللات والعزىٰ كانوا يتوجهون إلىٰ أشجار وأحجار وأصنام، أما نحن فنتوجه إلىٰ عباد صالحين لهم زلفىٰ ومكانة عند الله ﷻ فالأمر في حقنا مختلف، فليس لكم أن تحتجوا علينا بهذه الأدلة.

أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يرد علىٰ هذه الشبهة، وبين أنه لا فرق بين أن يُشرَك مع الله ولي صالح، أو يُشرك معه شجر أو حجر، لا فرق النبي ﷺ لم يفرق في الحكم بين مشرك ومشرك، بالتالي فتزول هذه الشبهة التي يروج لها هؤلاء، وهذه من أكبر الشبه التي يروج لها أهل الشرك، فإذا انحلت كان ما بعدها أيسر منها.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقاتلهم رسول الله ﷺ ولم يفرق بينهم، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ [الأنفال : ٣٩].

الشَّرْح

هذا هو الدليل وهذه هي الحجة، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ **والفتنة:** هي الشرك مهما كان نوع هذا الشرك، ومهما كان المُشرَك به، أي فتنة أي شرك يجب أن يُرد، ويجب أن يُتبرأ منه، ويجب أن يجاهد في سبيل الله أصحابه مع الاستطاعة.

ولا فرق بين شرك وآخر، واللهُ ﷻ قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ وهذا يشمل كل أنواع الشرك بالله ﷻ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ودليل الشمس والقمر قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧].

الشَّرْح

من أهل الجاهلية مَنْ كان يعبد الشمس، وبعض هؤلاء نصبوا تمثالًا علىٰ هيئة معينة مذكورة في كتب التاريخ للشمس، حتىٰ يتمثلوا هذا المعبود أمام أعينهم، وبعضهم اعتقد أن الشمس مَلَك، فهم يتوجهون إلىٰ هذا الْمَلَك الذي يمكن أن ينفعهم، كذلك من أهل الجاهلية من عبد القمر واعتقد أن في يده نفعًا وضرًا في العالم السفلي، فتوجه هؤلاء المشركون إليه، وربما نصبوا تمثالًا علىٰ هيئة معينة لهذا القمر، واللهُ جَلَّ وَعَلَا نهىٰ عن ذلك فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وعباد الشمس إلىٰ هذا اليوم موجودون، وربما تأثر بهم من تأثر، فهذه عبادة باطلة أبطلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ودليل الملائكة قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

الشَّرْح

أما عبادة الملائكة فشيء كثير كان في أهل الجاهلية، كثير من أهل الجاهلية كانوا يعبدون الملائكة، يتوجهون لهم بالسؤال والدعاء، وبعضهم يعبدها مباشرة، وبعضهم يعبد الأصنام التي ترمز إلىٰ هؤلاء الملائكة، وهذا كثير كما ذكرت.

ولذا اللهُ ﷻ يظهر براءة الملائكة من هذه العبادة ومن عابديها يوم القيامة حينما يسألهم هذا السؤال فيبرؤون إلىٰ الله سبحانه منهم ومن عبادتهم، والأدلة في هذا الباب كثيرة.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ودليل الأنبياء قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

الشرح

أما عبادة الأنبياء فمثالها عبادة المسيح عليه السلام، وهذا أكثر من أن يذكر في أهل الجاهلية الذين كانوا في عهد النبي ﷺ، فقبائل من العرب تنصرت من أهل نجران، ومن الشمال من تَغْلب، ومن غسان، ومن غيرها من القبائل تنصروا، وكانوا يعبدون عيسىٰ عليه السلام فكفرهم النبي ﷺ، ولم يجعل بينهم وبين عُبّاد الأصنام والأحجار فرقًا، لا فرق بين من يدعوا عيسىٰ عليه السلام ومن يدعو هبل أو اللات أو نائلة أو إساف، كلهم في حكم واحد كما يدل علىٰ هذا سنة النبي ﷺ، كذلك أمه وهذا مثال لعبادة الصالحين، مريم عليها السلام عبدها النصارىٰ أيضًا؛ لأنها أم الإله هكذا يزعمون، كذلك النبي ﷺ حكم بحكم واحد علىٰ هذه العبادة وعابديها، والله جل جلاله يسأل هذا السؤال لعيسىٰ عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حتىٰ تظهر البراءة وحتىٰ يكون التبكيت لهؤلاء المشركين يوم القيامة، فيبرأ عيسىٰ عليه السلام إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ من هذه العبادة أو من أن يكون قد دعا الناس حتىٰ إلىٰ عبادته أو إلىٰ عبادة أمه.

كذلك عزير الذي عبده من عبده من اليهود، أيضًا مثالٌ لعبادة الأنبياء عليهم السلام.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ودليل الصالحين قوله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٨].

الشَّرح

هذه الآية تدل علىٰ نفي عبادة الصالحين كما أنها تدل علىٰ نفي عبادة الأنبياء، وأهل التفسير منهم من ذهب إلىٰ الأول ومنهم من ذهب إلىٰ الثاني، ومن ذلك ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية أنها في الملائكة والمسيح وعزير عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، يعني هم المعنيون بقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ لاحظ أن في الآية داعيًا ومدعوًا: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ يعني أولئك الذين يدعوهم هؤلاء المشركون، هؤلاء المدعوون الشأن أنهم يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة، فكيف يا أيها العقلاء تتوجهون إلىٰ معبود هو نفسه عابد لله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ وهم علىٰ ما فسر ابن عباس الملائكة والمسيح وعزير عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

والتفسير الثاني: هو أن هؤلاء المعنيين في هذه الآية هم الجن الذين أسلموا، وهذا تفسير ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما في صحيح البخاري، فإنه قال: كان أناس من الإنس يعبدون جنًا، فأسلم هؤلاء الجن، فصاروا يعبدون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ

﴿رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ ولم يشعر بذلك الإنس فاستمروا علىٰ عبادتهم مع أن هؤلاء الجن عابدون لله ﷻ، هذا مثال لعبادة الجن، وهو أيضًا مثال لعبادة الصالحين إذن هذا دليل علىٰ أن الأنبياء عُبِدوا وعلىٰ أن الصالحين عُبِدوا، وعلىٰ أن الملائكة عُبِدوا، ولم يفرق النبي ﷺ بين شرك وشرك.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ودليل الأشجار والأحجار قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١].

الشَّرْح

أيضًا من عبادة الصالحين ما جاء في قول الله ﷻ ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] فإن هؤلاء صالحون، كانوا من عِباد الله الصالحين وأوليائه المتقين في قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا جاء الشيطان إلىٰ أتباعهم وتلاميذهم ومحبيهم وقال لهم : انصبوا صورا في مجالسهم التي كانوا يعتادونها، حتىٰ إذا رأيتموهم تذكرتموهم فنشطتم للعبادة، هكذا يأتي الشيطان ابنَ آدم يسول له بأنواع التسويل، فكان ما أوحىٰ الشيطان إلىٰ هؤلاء فلم يَعْبد هؤلاء هؤلاء الصالحين فلما انخرم هذا الجيل وتنسخ العلم، أصبح العلم بالشرع ضعيفًا وأصبح العلم بسبب نصب هذه الصور أصبح ضعيفًا ما أحد يعلم لماذا نُصبوا، فجاءهم الشيطان فقال لهم : إنما نصب أقدموكم هذه الصور في هذه الأماكن لأجل أن يتوجهوا إليهم ولأجل أن يتوسلوا إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ بهم يسترزقون، بهم فيتنزل المطر، فعبدوهم من دون الله، إذن هذا مثال أيضًا لعبادة الصالحين.

أيضًا من الأمثلة ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هاهنا في قول الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ هذه ثلاثة أوثان كان يعبدها المشركون، وكانت أعظم أوثان العرب، ولذا جاء التنصيص عليها والله تعالىٰ أعلم.

أما اللات: فكان بالطائف، والأصل أنه رجل صالح كان يَلُتُّ السويق، كان يخلط السويق الذي يصنع من القمح ونحوه يخلطه بالماء أو بالزيت حتىٰ يساغ في الأكل، ويطعمه الناس، كان رجلًا صالحًا يتصدق، وكان يجلس في مكان عند صخرة فلما مات جاء الشيطان بالحيلة السابقة، فاستمر الأمر مدة حتىٰ وُجِدَ الجيل الجاهل فعبدوا هذا القبر الذي فيه هذا الرجل اللات: اسم فاعل من لَتَّ يَلُتُّ فهو لَاتٌّ، فعبدوا هذا القبر، ثم تطور الأمر إلىٰ أن عبدوا الصخرة التي كان يجلس عليها، وبالتالي صار من أعظم الأوثان وأجمعت العرب جميعًا في الجاهلية علىٰ عبادة هذا الصنم وتعظيمه، وإن كان أعظمهم شركًا به هم ثقيف قال ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ﴾ هذا مثال يصلح للأصنام للأشجار والأحجار، ويصلح أيضًا لعبادة الصالحين.

أما العزى: فذكروا في كتب التاريخ أنها ثلاث سَمُرات يعني من شجر السَّمُر، كانت بنخلة منطقة قريبة من منطقة السيل بين الطائف ومكة، هذه أيضًا كانت من أكثر المعبودات تعظيمًا عند العرب، وأكثرهم تعظيمًا لها هم قريش، وهذه الأشجار الثلاث كان فوقها بناء، وعلىٰ هذا البناء بنوا بناء فوق هذه الشجرات، وفوق هذه البناية كان هناك أستار يضعونها عليها، وجاء في بعض الروايات التاريخية ما يدل علىٰ أن العزىٰ صنم وأن هذه الشجرات كانت في حريمه وكانت حوله، فعظموها لأجل تعظيم هذا الصنم، فهذا دليل علىٰ عبادة الأشجار وعلىٰ عبادة الأحجار.

قال ومناة: مناة هي الصنم الثالث المذكور في الآية، وإن كان الأقدم وجودًا كما ذكروا، فمناة كانت بقُدَيْد، وهذه قُدَيْد تراه إذا ذهب إلىٰ مكة، بين مكة والمدينة وهو إلىٰ مكة أقرب، فكان فيه هذا الوثن الذي هو مناة، قيل إنه صخرة عظيمة، وقيل إنه صنم يعني تمثال.

فالشاهد أن هذه أوثان عُبِدَتْ مع الله ﷻ وكان كما تعلمون ما يتعلق بعبادة الأصنام والأحجار والأشجار كان هذا أكثر ما وقع فيه العرب في الجاهلية من العبادات، بل كان كل واحد من أهل الجاهلية له صنم في بيته يعبده، وآخر شيء يصنعه إذا أراد السفر أن يتمسح به، وأول شيء يفعله إذا عاد إلىٰ البيت أن يتمسح به، ولما فتح الله مكة لنبيه ﷺ كان في جوف الكعبة وحولها ثلاثمائة وستون من الأصنام، فكان النبي ﷺ يمر عليها ويطعن في رأسها وصدرها بقوسه عليه الصلاة والسلام فتسقط وهو يتلو قول الله ﷻ: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١] ثم أُمِرَ بها فأخرجت من المسجد فأحرقت.

فالأصنام كان شأنها عظيمًا عند العرب وكانت عند حذاقهم رموزًا يقصدون بها تمثيل الشيء الذي يعبدونه حتىٰ يستحضرونه، وأما الجهلة منهم فإنهم كانوا يتوجهون إلىٰ الصنم من حيث هو فيتوجهون إلىٰ الحجر فيعتقدون فيه في نفسه، وكل ذلك لا شك أنه من أوطار الجاهلية، ومن أوساخ الشرك الذي أستولت علىٰ القلوب عافاني الله وإياكم من ذلك.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وحديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ حُنَيْنٍ ونَحْنُ حُدثَاء عَهدٍ بِكفْر، وَالِمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّها السَنَنَ، قُلْتُمْ وَالذِي نَفْسِي بيَدِه كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

الشرح

أيضًا من الأمثلة ما جاء في حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو آخر ما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه القاعدة.

هذا الحديث، حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه فوائد كثيرة، وفيه مسائل متعددة، ولكن الشاهد الذي من أجله أورد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الحديث: إثبات أن أهل الجاهلية كانوا يتوجهون إلىٰ الأشجار فيعبدونها من دون الله، ومن ذلك ما كانوا يتوجهون به إلىٰ هذه السدرة، السدرة شجرة النَّبِق معروفة، كانوا يتوجهون إليها ويعبدونها، وهذا من ضلال العقل، سبحان الله العظيم، شجرة تنبُت تظهر بعد أن كانت عدمًا، وهم يرونها بأعينهم، ثم إذا قامت علىٰ ساقها عبدوها من دون الله، أي ضلال هذا وأي تخبط هذا، شجرة من خشب وتأول إلىٰ خشب وتحطم بكل سهولة ريح يسيرة ربما تكفؤها وتقلعها من جذروها، تعبد من دون الله سبحان الله العظيم!.

هذا دليل علىٰ أن الشيطان قد يصل في تلاعبه بابن آدم إلىٰ مبلغ عظيم، نسأل الله السلامة والعافية.

المقصود في هذه القاعدة : أن من أشرك مع الله ﷻ أي أحد فإنه يكون قد وقع في دين أهل الجاهلية، حتىٰ لو أشرك مع الله أعظم الخَلْق وهو النبي محمد ﷺ، حتىٰ لو أشرك مع الله أعظم الأولياء قدرًا وأرفعهم منزلة لا فرق بينه وبين من يعبد اللات وعزىٰ وهبل ومناة لا فرق، الحكم واحد والنبي ﷺ لم يفرق بين شرك وشرك وبين هذا الشرك الذي يعبد فيه ولي وصالح أو نبي أو ملك وبين ذاك الذي يُتوجه به إلىٰ شجر أو حجر، لا فرق الحكم واحد.

إذن عليك يا عبد الله أن تحذر فالله ﷻ هو المعبود وحده لا شريك له، وكل ما يقصد لأجل الشفاعة، ولأجل التقريب عند الله ﷻ فيبذل له من العبادة ما يبذل فإنه إله، والله ﷻ يقول: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].

إذن إذا كنت تطلب غير الله ﷻ بعبادتك لأجل تحصيل الشفاعة، فقد اتخذت إلهًا بنص الآية، أو كنت تطلب بعبادتك من غير الله ﷻ أن يعينك وأن ينقذك، وأن يجلب لك خيرًا وأن يدفع عنك شرًا فقد اتخذته إلهًا، ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

القاعدة الرابعة: أن مشركي زماننا أغلظ شركا من الأولين؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ومشركو زماننا شركهم دائمٌ في الرخاء والشدة.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

الشرح

هذه قاعدة مهمة ونتيجة مهمة أيضًا، إذا فهمت ما سبق وهو أن المشركين كانوا يقرون بالله ﷻ بالربوبية والخلق والرَّزْق والتدبير، وأنهم إنما عبدوا هذه المعبودات مع الله سبحانه فقط لأجل أن تكون شفيعة مقربة لهم إلىٰ الله، ولأجل هذا أحبوها كحب الله وعظموها كتعظيم الله، وأن النبي ﷺ لم يفرق بين هذه المعبودات وعابديها، بل حكم عليه جميعًا بحكم واحد مع اختلاف أنواع شركهم.

إذا علمت كل ما سبق، فاعلم يا رعاك الله أن مشركي زماننا أغلظ شركًا من المشركين الأولين، سبحان الله العظيم، مشركوا زماننا أشد شركًا وأعظم كفرًا من الكفار الأولين، لم؟

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:**(لأن المشركين الأولين كانوا يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة)** إذا نزلت بهم النوازل كانوا يتوجهون إلىٰ الله ﷻ وحده ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى

﴿ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ طيب انتهت المحنة ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ يرجعون إلىٰ الشرك مرة أخرىٰ، عادوا مرة أخرىٰ إلىٰ ضلالهم تارة أخرىٰ، إذا نزلت بهم النازلة وجاءهم الكرب زال من أمام ناظرهم شريط الأوهام الذي كان يعرض لهم قبل ذلك، وكانوا بسببه يتوجهون إلىٰ هذه الأصنام، علموا حينها أنها أذل وأقل وأحقر من أن تعينهم أو تنقذهم أو تملك لهم دفع هذا الضر الذي وقعوا فيه، علموا حينها أن الله وحده هو الذي يقدر علىٰ إنقاذهم، ولأجل هذا توجهوا إليه سبحانه، والله ﷻ يبن هذا في نصوص كثيرة، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] لاحظ هنا تقديم ﴿فَإِلَيْهِ﴾،هذا في لغة العرب (تقديم ما حقه التأخير) يدل علىٰ الحصر، الأصل أن يكون السياق (تجئرون إليه) لكن الله تعالىٰ يقول: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ هذا في قوة مالو قيل: (تجئرون إليه وحده دون ما سواه).

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٤] رجعوا مرة أخرىٰ إلىٰ الشرك بالله ﷻ، إذن هذا الذي كان عليه المشركون الأولون، أبو جهل وأبو لهب وأمية وأُبَيّ وطواغيتُ قريش وغيرهم من العرب هذا هو دَيْدَنُهُمْ، وهذا كان معتقدهم، في مرحلة الضر والمرحلة الصعبة في حياتهم يتركون الشرك انتهىٰ هذه الأصنام لا تمثل لهم شيئًا إنما يتوجهون إلىٰ الله وحده، هذا في القديم.

فما هو حال الناس في الحديث؟

المشركون يقول المؤلف : شركهم دائم في الرخاء والشدة، وأنا أقول إن شركهم في الشدة أعظم منه في الرخاء، بل إن منهم من لا يعرف اللهَ في الشدة، بل لا يعرف إلا معبوده من دون الله ﷻ، إذا كان في البحر واضطرب واصطلم وأشرفوا علىٰ الهلاك في هذه اللحظات الصعبة فإنهم يتوجهون إلىٰ غير الله ﷻ ولا يدعون الله، يا لله العجب، حالهم أسوء من حال المشركين الأولين وهذا كثير في حال هؤلاء.

هناك كُتيب صغير تقرؤه في ربع ساعة أو نحو ذلك أوصيك بقراءته اسمه "كيف نفهم التوحيد" كُتيب صغير تشتريه للشيخ محمد باشميل ذكر فيه قصة لطيفة فيها عبرة، وهي أنه كان في شبابه في البحر فاضطرب بنا البحر تارة يهوي بنا البحر حتىٰ كأن السفينة ستقر في قاعه، وتارة ترتفع السفينة حتىٰ كأنها تريد أن تطير من البحر، فأشرفنا علىٰ الهلاك، حينها وكنا يقول ثمانين راكبًا تقريبًا في سفينة شراعية صغيرة، يقول: تداعوا فيما بينهم أن يدعوا أحد الأولياء اسمه ابن عيسىٰ، قالوا: لا يُخلّصكم من هذا الكرب إلا ابن عيسىٰ فصاروا يهتفون (يا ابن عيسىٰ، يا ابن عيسىٰ، يا عمود الدين، فزعتك) ما عرفوا الله في ذلك الوقت ولا خطر في قلوبهم إنما خطر في قلوبهم عبادةُ هذا الذي هو أعظم في قلوبهم من الله، يقول: فصحت به وقلت لهم : ادعوا الله فهو الذي يقدر علىٰ إنقاذكم، يقول: فهاجوا علي وغضبوا حتىٰ كادوا يلقونني في البحر، لولا أن الله أنقذني بسبب بعض من كان منهم من البحارة هؤلاء يكتم إيمانه، حال هؤلاء بيني وبينهم،

حتىٰ كشف الله ﷻ هذه الغمة التي بنا، وإذا بهم يقولون له : أرأيت كيف أن ابن عيسىٰ أنقذنا! إياك أن تظن ظن السوء بالسادة والأولياء! !

فيقول: بدأت أعظهم وأقول لهم : اتقوا الله واللهِ أن ابن عيسىٰ لا يدري عنكم ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣] واللهِ إنه لا يدري ما أصابكم، إنما إنقاذكم كان من الله ﷻ وحده، فصار بينه وبينهم جدال طويل وفيه بعض الفائدة لعلكم تراجعون ذلك.

الشاهد أن المشركين في هذا الزمان مع الأسف الشديد أَضْحَوْا أغلظ شركًا من الأولين حيث أنهم يشركون مع الله ﷻ حتىٰ في الشدة، وهذا كثير من نظر في أحوالهم وجد ذلك، ومن نظر في كلامهم وجد ذلك، ومن نظر في أشعارهم وجد ذلك، حتىٰ إنهم يتداولون فيما بينهم " إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور" يا لله العجب! وربما رووا هذا حديثا عن رسول الله ﷺ وهو كذب عليه ﷺ، ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لما قدم التتار إلىٰ الشام صاح هؤلاء المساكين الذين قلوبهم مريضة، متلطخة، ليست سليمة ولا صافية، صاروا ينادون بعضهم فيقولون: يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر، ليس لوذوا إلىٰ الله ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر ينجيكم من التتر

حالٌ أسوء من حال المشركين الأولين، تجد مع الأسف الشديد من الناس من يطرب وهو ينشد قصيدة مشهورة يقول صاحبها:

ما مسني الدهر يومًا واستجرت به[1] إلا وجدت جنابًا منه لم يضم

إذا نزل الضر ما عرف الله إنما يستجير بغيره سبحان الله العظيم.

أحدهم يخاطب معبوده من دون الله ﷻ، وهذا المعبود يحج إليه ثلاث مرات في السنة، يحضر إليه الآلاف من الآفاق يقول: رحماك أرجوا يا أبا الفتيان في خطب أهاج القلب من حسراته

مالي سواك أرومه في كشفه أو أرتجي إن ضقت من وثباته

عار عليك إذا تَرُدُّ خويدمًا قصر الفؤاد عليك في حاجاته

إنا لله، باللهِ أكان أبو جهل وأبو لهب مرتكسين إلىٰ هذا القدْر من الشرك بالله ﷻ؟

عار عليك إذا تَرُدُّ خويدمًا قصر الفؤاد عليك في حاجاته

يعني قلبه لا يعرف، مقصور فقط علىٰ هذا المقبور الذي أصبح -والله تعالىٰ أعلم- أصبح ترابًا، تحوّل إلىٰ أصله الذي خلق منه.

هل هذا المستوىٰ من الشرك وصل إليه أولئك الذين كانوا يقولون: "لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك" ؟!

أهذا المستوىٰ وصل إليه اولئك الذين كانوا يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]، ويقولون: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

ذكر الألوسي المفسر المشهور في تفسيره (روح المعاني) في تفسير سورة النحل عند قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ذكر قصة عجيبة

---

(١) يعني النبي ﷺ.

تدلك علىٰ صدق ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك الأولين، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: "لما كنت شابًا صغيرًا، قال لي أحد المتمشيخين -شخص متمشيخ بعمامة وجُبّة يلبس لباس العلم- ولكن العلم منه براء، يقول : قال لي : إذا نزلت بك النازلة إياك أن تدعو الله، -واللهِ يا إخواني هذا في الكتاب وارجعوا إليه-، يقول: إياك أن تدعو الله فإن الله لا يهمه ما نزل بك، ولا يبالي بك! ! إنا لله وإنا إليه راجعون، واللهِ إنه لكلام ترتعد منه الفرائس، قال: ولكن عليك بالأولياء والصالحين فإنهم يبادرون إلىٰ إنقاذك وكشف ما بك"، انظر إلىٰ هذا المستوىٰ السحيق الذي وصل إليه عباد القبور عافاني الله وإياكم من ذلك.

إذن صدق المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن المشركين المتأخرين أعظم شركًا من المشركين الأولين، وزد علىٰ هذا سببًا آخر سوىٰ أنهم يشركون في الرخاء والشدة، أو يخلصون الشرك -إن صحت العبارة- في الشدة.

أضف إلى هذا أمرًا ثانيًا: كان الأولون يشركون مع الله ﷻ عِبادًا صالحين أولياء، ملائكة، أنبياء، أو من لا يعصي الله ﷻ كشجر وحجر.

لكن في المتأخرين من يعبد مع الله الشياطين، شياطين الإنس والجن، ربما عبدوا أفجر الناس وأفسق الناس، سبحان الله، وأقاموا المشاهد علىٰ قبورهم، توجهوا إليهم بالعبادة، ذكرنا أمثلة فيما سبق وقلت لك انظر في بعض الكتب المؤلفة عند هؤلاء في الكرامات، وانظر إلىٰ من يوصفون بأنهم أقطاب وأوتاد، وأن أحدهم غوث، وما شاكل ذلك، انظر سيرته والكرامات التي تُذكر، ربما وجدت أنه كان يفعل الفاحشة، وكان يسرق، وكان يتحسس النساء، ثم بعد ذلك يعبد من دون الله.

أضف إلى هذا أمرًا ثالثًا أيضًا: أن المشركين الأولين كانوا يقرون بربوبية الله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزُّخرُف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

أما المتأخرون فإنهم يشركون في الألوهية وفي الربوبية، ولذا ينسبون إلىٰ غير الله ﷻ ما يُنسب إلىٰ الله من المغفرة، ومن إقالة العثرات، ومن كشف الضر ومن غير ذلك، حتىٰ وجدنا بعضهم وهذا شيء اطلعت عليه في كلامهم يقول: الولي الفلاني يقدر علىٰ كل ما يقدر عليه الله، واللهِ يا إخواني بهذا النص، ويعلم كل ما يعلمه الله لا فرق بينه وبين الله إن دعوته أو دعوت الله لا فرق؛ لأنه كما الله يعلم كل شيء فهذا يعلم كل شيء، كما أن الله يقدر علىٰ كل شيء هذا الولي يقدر علىٰ كل شيء، هذا أيضًا يدلك علىٰ أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك المتقدمين.

أضف إلى هذا أمرًا رابعًا يدلك على صدق هذه الجملة: أن المتأخرين كانت معبوداتهم أعظم في القلوب من الله ﷻ، وهذا واقع لا يُنكر، وإذا أردت البرهان علىٰ ذلك فانظر إلىٰ حالهم إذا جاءوا يُقسمون بالله أو بمعبودهم، يحدثني أحد هؤلاء الذي أعلن توبته وأسأل اللهُ أن يثبته علىٰ هذه التوبة، يقول: أنا شيخ في قبيلتي فيختصم الناس إليَّ، يقول: فإذا توجب اليمين علىٰ الخصم، إذا قلت له : احلف بالله يعطيني ما شئت من الأيمان، وأنا أشعر أنه كاذب، إذا قلت له: احلف بالله ما حصل أو حصل يقسم ما شئت من الأيمان، لكن أذهب به إلىٰ قبر السيد، ويقول له: احلف هنا بالسيد، يقول لي:

واللهِ لا يستطيع أن يحلف، سبحان الله العظيم، السيد في قلبه أعظم من الله ولذا سهل عليه أن يحلف بالله كاذبًا، لكن صعب عليه جدًا أن يحلف بهذا المعبود كاذبًا؛ لأن له سطوة وسلطان علىٰ قلبه أعظم من الله ﷻ.

صدق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ك: المشركون المتأخرون أغلظ شركًا من المشركين الأولين.

أسأل الله ﷻ أن يعيذني وإياكم من الشرك كله، صغيره وكبيره، ما علمنا منه وما لم نعلم، كما أسأله ﷻ أن يملأ قلوبنا بحبه وتوحيده وطاعته، وألسنتنا بذكره وأن يوفقنا لطاعته وأن يستعملنا في مراضيه إن ربنا لسميع الدعاء والله تعالىٰ أعلم.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعه بإحسان.